فهرست المساهم

ذخائر العرب
٥٨

كتاب الحُلَّة السِّيَراء

لابْنِ الأبّار

لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي
المعروف بابن الأبّار
(٥٩٥ - ٦٥٨ هـ / ١١٩٩ - ١٢٦٠م)

الجزء الأول
ويضم تراجم أهل المئات الأولى والثانية والثالثة والرابعة

حققه وعلق حواشيه
الدكتور حسين مؤنس
أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب بجامعة القاهرة
ومدير معهد الدراسات الإسلامية بمدريد سابقًا
وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة

دار المعارف

الطبعة الأولى – سنة ١٩٦٣
الطبعة الثانية – سنة ١٩٨٥

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

مقدمة الطبعة الثانية

باسم الله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، الرحمة المهداة وبعد :

فهذه هى الطبعة الثانية من كتاب الحلة السيراء لابن الأبار ، أقدمها للسادة القراء بعد مراجعة شاملة ، وتصويب لكل ما وقع فى الطبعة الأولى من وجوه النقص والخطأ .

واستبلاغًا فى التدقيق قمت بمراجعة النص على الأصل المخطوط ، وراجعت مادة الكتاب على كل ما صدر منذ ظهور الطبعة الأولى من أصول ودراسات ، وقومت العمل كله على هذا الأساس مع العناية الشديدة بالضبط والإتقان .

وقد أفدت كثيرًا من الملاحظات والتصويبات التى اقترحها أخى الأستاذ الدكتور محمود على مكى وما أورده فيما نشر من أجزاء مقتبس ابن حيان من معلومات ، وإليه أزجى خالص شكرى .

وأفدت كذلك مما نشر فى الصحف العلمية الاستشراقية من نقد وتصويب ، فإن هذا الكتاب لقى من الباحثين فى الغرب عناية كبيرة ، والمقالات التى نشرت فى تقريظه وتصويب النص كما نشرته كثيرة . وأرجو أن يكون الكتاب على هذه الصورة بالغًا من الدقة ما أرجوه ويرجوه الباحثون .

والحمد لله سبحانه فى البداية والنهاية ، فإن عنايته وفضله ومرضاته هى الغاية التى ما بعدها غاية .

وإلى القارئ الكريم أصدق الشكر والتحية .

القاهرة ١٠ من رمضان ١٤٠٤ هـ
١٠ من يونيو ١٩٨٤ م

د . حسين مؤنس
الأستاذ بكلية الآداب - بجامعة القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تمهيد :

عاش أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى المعروف بابن الأبار بين سنتى ٥٩٥/١١٩٩ و٦٥٨/١٢٦٠ ، أى ثلاثاً وستين سنة هجرية (إحدى وستين سنة ميلادية) ، وهو عمر طويل نسبياً ، وأتيحت له الفرصة ليصيب من العلم أوفر نصيب سمح به زمانه ، ووصل إلى الوظائف الكبرى فى عنفوان شبابه ، وظل بعد ذلك صدراً فى بلده بلنسية وفى كل مكان حل فيه ، وأوتى من الذكاء وبعد الفهم وقوة الذاكرة وبلاغة اللسان ما كان كفيلا بأن يهيئ له حياة سعيدة ، أو مستقرة على أقل تقدير ، ولكنه خُلق ذا طبع قلق ونفس حائرة وقلب ذى طماح بعيد المطارح ، فلم يقر له حال منذ أيفع إلى أن مات ، ولم يسعد من حياته الطويلة إلا بفترات قصار معظمها وهو دون الثلاثين ، ثم ما زالت الخطوب تنزل بساحته وما زال يعينها على نفسه حتى تكدرت حياته ما بقى له من أيام العمر بعد ذلك ، وانتهى به الأمر إلى مصرع فاجع على يد من خدمه وملأ الصفحات بمديحه ؛ فلو أننا بحثنا عن مثال لرجل لم ترحمه أيامه ولا رحمته نفسه لما كان هذ المثال خيراً من ابن الأبار .

ولكن الأجيال التالية لعصر ابن الأبار كانت أرفق به من أيامه ومن نفسه ، فتعاقب الناس على إنصافه وتكريمه والإشادة بذكره ، فترجم له أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله الغبرينى (ت ٧١٤/١٣١٤ ـ ١٣١٥) فى « عنوان الدراية » (ص١٨٣ـ١٨٧) وابن خلدون فى تاريخه (٦/٢٨٣ـ

٢٨٥) ، والمقرى فى « نفح الطيب » (٣٪٣٤٦–٣٤٧) و « أزهار الرياض » (٣٪٢٠٥) ، وأبو على محمد بن إبراهيم اللؤلؤى الزركشى فى «تاريخ الدولتين» (ص ٢٠ – ٢٧) ، ومحمد بن شاكر الكتبي فى « فوات الوفيات » (بولاق، ٢٪٢٨٢–٢٨٤) ، وذكر حاجى خليفة بعض مؤلفاته فى أربعة مواضع من كشف الظنون (٢٪١١٥ و٢٣٦ ، ٣٪٥٢٧) .

هؤلاء جميعاً أثنوا على ابن الأبار وقدروه قدره الصحيح كواحد من أكبر من أنجبهم الأندلس فى ميادين التاريخ والأدب وعلوم الإسلام ، وأنصفوه من قاتله وأجمعوا على أنه قتل مظلوماً ، بل وصفه بعضهم بالشهيد .

وفاقت عنايةُ المحدثين بابن الأبار عنايةَ الأقدمين ، فتبينوا من فضائله كمؤرخ وكاتب أكثر مما تبينه السابقون ، وصاحب الفضل فى ذلك دون شك هو المستشرق الهولندى المعروف راينهارت بيتر – آن دوزى ، فقد وقف عنده وقفة طويلة فى كتابه الصغير المسمى « مقدمة للبيان المغرب » :

Introduction au Bayan al - Moghrib, Leyde 1848.

وقرر أنه مؤرخ ثبت دقيق جدير بكل ثقة ، وأنه حافظ جمع فأوعى ، وحفل صدره من العلم بالمغرب والأندلس وبتاريخ الإسلام عامة ما لم يصل إليه إلا القلائل من علماء القرن السابع الهجرى ، وأن أسلوبه الأدبى قوى جميل فيه فحولة ندرت بين أهل عصره .

ثم عاد فأكد هذا الرأى ووفى ابن الأبار حقه من التقدير فى تعليقاته على الترجمة اللاتينية للنصوص الخاصة ببنى عباد أصحاب إشبيلية :

Scriptorum Arabum Loci de Abbadides, (Lugdoni Batavorum, 1852) II, 46—47.

ونشر تراجم الأندلسيين من الحلة السيراء فى كتابه المسمى :

Notices sur quelques Manuscrits Arabes (Leyde, 1847—1851) pp. 29 sqq.

مع مقدمة قصيرة عن ابن الأبار أحال فيها إلى ما كتبه عنه فى مؤلفاته الأخرى .

وكان نشر دوزى لهذه القطعة من الحلة ، بالإضافة إلى ما نشره منها فى جامع الكتابات عن بنى عباد منبهاً لأهل العلم إلى قيمة ابن الأبار وأهمية ما كتب ، فأقبل الناس يبحثون عما بقى من آثاره يدرسونها بالعناية الجديرة بها وينشرون ما تيسر لهم منها . وأول من فعل ذلك بعد دوزى ماركوس چوزيف مولر فى كتابه المسمى :

Beiträge Zur Oeschichte der Westlichen Araber. (München, 1866) Heft I, 161—192; heft II, 193—360.

ووقف مولر بتراجمه عند أحمد بن أبى الأغلب محيلا بعد ذلك إلى قطعة من « الحلة » كان قد نشرها أمارى فى المكتبة الصقلية (ص ٣٣ وما يليها) ؛ وواضح أن مولر كان ينوى متابعة نشر تراجم أهل المغرب من « الحلة » فى جزء ثالث من كتابه ، ولكنه لم يفعل ، فبقيت هذه التراجم دون نشر .

وكان دوزى قد نشر بضع تراجم أندلسية من « الحلة » ذيولا على بعض أبحاثه فى كتابه المعروف :

Recherches sur l'histoire et la Littérature de l'Espagne pendant le moyen-âge, 3e éd. Paris, Leyde 1881. Vol. I., appendices X, p. XIX; XX, p. XLVIII; XXIV, p. LVI — vol. II, appendices II, p. XXVII; IX, p. XLVI.

وكان الراهب اللبنانى ميخائيل الغزيرى نزيل إسبانيا وواضع الفهرس الأول للمخطوطات العربية فى مكتبة الإسكريال قد نبه إلى أهمية مخطوط « الحلة السيراء » الموجود بهذه المكتبة ونشر ترجمة لاتينية لقطعة صغيرة منه :

M. CASIRI *Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis*, Vol. II, p. 163, n. MDCCXXV.

ونشر كذلك قطعة من مخطوط كتاب آخر لابن الأبار هو التكملة :

Ibidem, Vol. II, n. MDCCXXX.

ثم عكف المستشرق الإسبانى فرانثيسكو كوديرا على نشر مخطوطين لابن الأبار ، أولهما « المعجم فى أصحاب القاضى الإمام أبى على الصدفى » ، المكتبة الأندلسية رقم ٤ :

Bibliotheca Arabico Hispana; tomus IV, Madrid 1886.

وثانيهما كتاب التكملة لكتاب الصلة :

Bibliotheca Arabico Hispana, t. V—VI, Madrid 1889.

وقد نشر فى هذين الجزءين التراجم التى يضمها المخطوطان رقم ١٦٧٥ و١٦٧٨ من مخطوطات مكتبة الإسكريال وهى التراجم من حرف الجيم إلى حرف الميم (عدا بعض الحروف بين العين واللام) . وقد عثر على هذه التراجم الناقصة فى مخطوط يحمل رقم ١٧٣٥ فى مكتبة الجزائر ، فقام على نشرها م . ألاركون وأنخل جنثالث پالنثيا فى مدريد سنة ١٩١٥ :

M. ALARCON y C. A. G. PALENCIA : *Apéndice a la edición Codera de la Técmila de Aben al-Abbar* en *Miscelanea de Estudios y Textos Arabes*, Madrid 1915.

وبقيت الحروف من الألف إلى الثاء ثم من اللام إلى الياء ، فأما الأولى فقد عثر عليها ألفريد بِل ومحمد بن شنب فى فاس ونشراها فى الجزائر سنة ١٩٢٠ :

IBN AL-ABBAR, *Técmilat as-Sila*. Texte arabe d'après un ms. de Fez. Tome I complétant les deux volumes édités par Codera, Alger 1920.

وعثر محمد بن شنب على قطعة تضم فاتحة التكملة فنشرها فى المجلة الإفريقية سنة ١٩١٨ :

M. BEN CHENEB, *L'Introduction d'Ibn al-Abbar à sa Técmila*. Revue Africaine, 1918 p. 300.

وقد قدم كل من كوديرا وألاركون وجنثالث پالنثيا وألفريد بِل ومحمد ابن شنب لما نشروا من نصوص لابن الأبار بمقدمات ودراسات ضافية ، نخص منها بالذكر مقدمتى كوديرا للمعجم ولما نشر من التكملة ، فهما دراستان شاملتان عن ابن الأبار وحياته وأعماله وقدره بين من أنجب الأندلس من أعلام .

وعند ما كتب فرديناند ڤستنفلد كتابه المعروف عن مؤرخى العرب اختص ابن الأبار بمادة طيبة :

F. WÜSTENFELD, *Die Geschichtschreiber der Araber und ihre Werke*. Göttingen, 1882, p. 129.

وفى الترجمة الإنجليزية التى قام بها بشكوال ِد جيانجوس للمجلد الأول من « نفح الطيب » للمقرى (طبعة أوروبا) تعليق طويل عن ابن الأبار وأعماله :

PASCUAL DE GAYANGOS, *The History of the Mohammedan Dynasties in Spain*, II, 528.

وكتب ميكيلى أمارى مادة قصيرة عن ابن الأبار فى الجزء الأول من تاريخ مسلمى صقلية ، ثم نشر قطعة منه خاصة بفتح صقلية فى المكتبة الصقلية (رقم ٥٢) ، وأشار إليه سيمونيت فى معجمه :

F. J. SIMONET, *Glosario de voces ibericas y latinas usadas entre los Mozarabes*. Madrid, 1888, CCXXIV.

وعندما كتب البارون ڤون شاك كتابه البديع عن شعر عرب الأندلس وصقلية وفنهم ، أشاد بابن الأبار وترجم إلى شعر ألمانى سينيته المشهورة فى استصراخ أبى زكريا الحفصى لنجدة الأندلس :

ADOLPH FRIEDERICH VON SCHACK : *Poesie und Kunst der Araber in Spanien und Sizilien*. 3 Auflage, Stuttgart, 1871.

وعن شعر ڤون شاك ترجم نفس القصيدة إلى شعر إسبانى خوان ڤالبرا عند ما ترجم الكتاب كله إلى الإسبانية :

JUAN VALERA, *Poeséa y Arte de los Arabes en Espana y Sicilia*. 3a ed. Sevilla 1881, I, 162.

وأوفى مادة كتبت عن ابن الأبار فى غير العربية هى تلك التى كتبها پونس بويجس فى معجمه عن المؤرخين والجغرافيين من أهل الأندلس :

FRANCISCO PONS BOIGUES, *Ensayo bio - bibliográfico sobre los Historiadores y Geógrafos arábigo - espanoles*. Madrid, 1898, nu. 253 pp. 291 – 296.

ونضيف إلى هذا العرض لما كتب عن ابن الأبار فى غير العربية مادتى كارل بروكلمان فى تاريخ الأدب العربى، ج١ / ٤١٦ والملحق ١ / ٥٨٠ (يلاحظ أنه أخطأ فى اسمه فجعله أبا على بن محمد بن على بن أبى بكر بن الأبار) ، ومادة دائرة المعارف الإسلامية فى طبعتها الأولى وقد كتبها محمد بن شنب (١/ ٣٧٤ ب و٣٧٥ ا) ، والفقرة الخاصة به من كتاب تاريخ الفكر الأندلسى (فقرة رقم ٨٦ ص ٢٧٧ – ٢٨٠ من ترجمتنا العربية) ، ثم المادة القصيرة التى اختصه بها كليمان أوار فى كتابه عن تاريخ الأدب العربى (ص ٢٠٤) .

أما المحدثون من الغرب ، فأول من نبه منهم إلى مكانة ابن الأبار هو جرجى زيدان فى كتابه القيم عن «تاريخ الأدب العربى» ، فقد اختص ابن الأبارِ بمادة قصيرة فى الجزء الثالث من ذلك التاريخ (ص ٨٤ من الطبعة الجديدة بتحقيق الدكتور شوقى ضيف) أشار فيها إلى مكانته كمؤرخ ، وهى على صغرها مادة طيبة تضع ابن الأبار فى مكانه بين مؤرخى الغرب الإسلامى فى القرن السابع الهجرى .

ثم تناول ابنَ الأبار المرحومُ الدكتور عبد العزيز عبد المجيد فكتب عنه كتاباً ضخماً (٣٨٤ صفحة) نال به جائزة مولاى الحسن لسنة ١٩٥١ ، ونشر الكتاب فى نفس العام فى تطوان ، وعلى الرغم من أن هذا التأليف كان أول عهد المؤلف بالدراسات الأندلسية ، إلا أنه عرف كيف يجمع الأصول اللازمة للكتابة عن ابن الأبار ويفيد منها ، فدرس عصره وشخصيته ومؤلفاته دراسة طيبة تدل على اجتهاد وصبر ، وقد أفدنا فائدة كبيرة من هذا الكتاب .

ثم تناول موضوع ابن الأبار الأستاذ ألفريد البستانى فنشر « المقتضب » الذى صنعه أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم البلفيقى لكتاب ابن الأبار المسمى « تحفة القادم » فى مجلة المشرق (السنة الحادية والأربعون ، يوليو – سبتمبر ١٩٤٧) وقدم له بدراسة قصيرة .

وبعد ذلك بعشر سنوات أعاد الأستاذ إبراهيم الإبيارى نشر نفس النص ، وعلى نفس مخطوطة الإسكريال (رقم ٣٥٦) وقدم له بمقدمة طيبة تتضمن بحثاً عن حياة ابن الأبار وأعماله ودراسة لذلك « المقتضب » ، وكلاهما عمل طيب مشكور .

وفى سنة ١٩٥٩ تقدم السيد أنيس عبد الله الطباع ببحث له عن ابن الأبار للحصول على الدكتوراه من جامعة مدريد ، وأجيز عليه ، ثم طبع ترجمة عربية للبحث بعد ذلك فى بيروت .

وأخيراً ، فى سنة ١٩٦١ ، قام الدكتور صالح الأشتر بنشر « إعتاب الكتاب » لابن الأبار ومهد له ببحث مستفيض عن حياة ابن الأبار وعصره ومؤلفاته وكتاب إعتاب الكتاب.

فهؤلاء تسعة عشر رجلا من أهل العلم من المحدثين فى الشرق والغرب عرفوا قدر ابن الأبار وقاموا على خدمة نصوصه وصرفوا من الجهد ما تيسر لهم فى التعريف به وبأعماله وخصائصه وميزاته ، وكلهم أجمعوا على ما قرره دوزى من أنه يعتبر بحق من أكبر من أنجب الأندلس من أهل العلم ومن أولاهم بالثقة والتقدير.

ولم يصب هذا الحظ من أعلام الأندلس إلا القلائل ، بل كان حظ ابن الأبار من التقدير أكبر من حظوظ مؤرخين يزيدون عنه أهمية مثل أحمد بن محمد الرازى وابن حيان وابن بسام ، فإن واحداً من هؤلاء لم يظفر من الباحثين بكتاب خاص عنه فى حين ظفر ابن الإبار بكتابين : وتلك عناية من القدر بهذا الرجل الذى يشعر الإنسان وهو يقرأ تاريخ حياته أنه لم يعرف قدر نفسه كما عرفه الآخرون .

* * *

حياة ابن الأبار :

وقد قص معظم هؤلاء حياة ابن الأبار فى تطويل أو فى اختصار ، وتتشابه هذه التراجم فى محتواها ، لأن المراجع التى تعتمد عليها فى الترجمة له

متشابهة فى مادتها لا يضيف واحد منها شيئاً جديداً ، وهى لا تخرج عما أتينا به فى الفقرة الخاصة به من «تاريخ الفكر الأندلسى» (ف ٨٦ ص٢٧٧ — ٢٨٠)، ويبدو من هذه التراجم أن حياة ابن الأبار واضحة خالية من المعضلات ، وربما كان هذا صحيحا عن نصف حياته الثانى ، أى منذ وصوله إلى تونس إلى مصرعه ، ولكن النصف الأول من حياته فى حاجة إلى دراسة ، وخاصة ما يتعلق منه بمأساة بلنسية ونصيب ابن الأبار فى الأحداث التى انتهت بتسليمها.

ونبدأ من البداية ، فنجد الغبرينى يقول إن أصله من أجردة ، وفى نسخة أجره ، ولا نجد قرية أو موضعاً فى إقليم بلنسية بهذا الاسم ، ولكن محمد بن شنب ناشر « عنوان الدراية » يقول فى تعليق له : فى نسختين «أجره» والصواب « تُورِيَة » ، ولا ندرى علام استند فى هذا التصويب ، لأن تورية أو التوريا هو الاسم اللاتينى والإسبانى لنهر بلنسية الذى يسميه العرب بالنهر الأبيض ، ويسمى فى بعض النصوص الإسبانية بهذا الاسم العربى Guadalaviar ، وليست هناك قرية باسم تورية فى ناحية بلنسية . ويضيف الغبرينى عن أجردة هذه : « وهى وما والاها دار القضاعيين فى الأندلس » ، ولم نجد ما يؤيد هذا فى « جمهرة الأنساب» لابن حزم : وصحة الاسم أُنْدَه ، فقد ذكر ابن الأبار فى ترجمته لأبيه (التكملة رقم ١٤٤١) أنه « من أهل أنده وسكن بلنسية » . وأنده Onda اليوم مدينة صغيرة فى مديرية قسطليون Castellón de la Plana ، وتقع على ٢٠ كيلومتراً غربى قسطليون قاعدة المديرية ، وكانت أنده على أيام المسلمين تابعة لكورة بلنسية :

وترجمة ابن الأبار لأبيه تلقى ضوءاً على أصله وحياته الأولى ، فقد كان أبوه عبد الله بن أبى بكر بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أحمد بن أبى بكر القضاعى من أهل العلم والدين ، درس على أجلاء أهل العلم فى عصره وأجاز له الكثيرون منهم رواية كتبهم ورواياتهم ، قال ابن الأبار : « وكتب إليه القاضى أبو بكر بن أبى جمرة يجيز له ولى معه جميع روايته مرتين ،

إحداهما فى غرة رجب سنة ٥٩٧ ، والثانية فى منتصف ذى القعدة من العام المذكور ، وأنا إذ ذاك ابن عامين . وأشهر مولدى عند صلاة الغداة من يوم الجمعة فى أحد شهرى ربيع سنة ٥٩٥ » . وهذا أدق تحديد وجدناه لتاريخ ميلاد ابن الأبار مع ما فى العبارة من تضارب ، فهو يقول أولا أنه كان فى منتصف ذى قعدة سنة ٥٩٧ ابن سنتين ، أى أنه ولد فى ذى قعدة سنة ٥٩٥ ، ثم يقول إنه ولد فى أحد شهرى ربيع من نفس السنة ، فإذا كان قد ولد فى ربيع الأول منها فإن هذا الشهر يقابل ديسمبر ١١٩٨ ، وإذا كان قد ولد فى ربيع الثانى فهو من مواليد يناير سنة ١١٩٩ .

ثم يقول ابن الأبار عن أبيه : « وكان رحمه الله — ولا أزكيه — مقبلا على ما يعنيه ، شديد الانقباض بعيداً عن التصنع ، حريصاً على التخلص مقدَّماً فى حَملة القرآن ، كثير التلاوة له والتهجد به ، صاحب ورد لا يكاد يهمله ، ذاكراً للقراءات ، مشاركاً فى حفظ المسائل ، آخذاً فيما يستحسن من الأدب ، معدَّلا عند الحكام ، وكان القاضى أبو الحسن بن واجب يستخلفه على الصلاة بمسجد السيدة من داخل بلنسية . قرأت عليه القرآن بقراءة نافع مراراً ، وسمعت منه أخباراً وأشعاراً ، واستظهرت عليه مراراً أيام أخذى على الشيوخ ، يمتحن بذلك حفظى ، وناولنى جميع كتبه ، وشاركته فى أكثر من روى عنه . وسمعته يقول : حضرت شيخنا أبا عبد الله ابن نوح ، وقد زاره بعض معارفه ، فسأله عن أحواله ، وبالغ فى سؤاله ، فجعل يحمد الله ويردد ذلك عليه ، ثم أنشد متمثلا :

جرت عادة الناس أن يسألوا عن الحال فى كل خير وشر
فكلٌّ يقول بخـــير أنا وعند الحقيقة ضد الخبر

... حدثنى أبى رحمه الله غير مرة أنه ولد بأنده سنة ٥٧١ (١١٧٥ — ١١٧٦) ، وتوفى ببلنسية وأنا حينئذ بثغر بطليوس عند الظهر من يوم الثلاثاء الخامس لشهر ربيع الأول سنة ٦١٩ (٢١ مارس ١٢٢٢) ، ودفن لصلاة العصر من يوم الأربعاء بعده بمقبرة باب بيطالة وهو ابن ثمان وأربعين

سنة ، وحضر غسله أبو الحسن بن واجب وجماعة معه ، وكانت جنازته مشهودة والثناء عليه جميلا ، نفعه الله بذلك » .

وإذن فقد نشأ ابن الأبار فى بيت علم ودين وعفاف ، ولكنه لم يكن من بيت رياسة وولاية ؛ ولو أن ابن الأبار سار على نهج أبيه فى الانصراف إلى العلم والانقطاع له لانتفع بحياته بأكثر مما قدر له ، ولكنه انصرف وهو فى مطالع شبابه إلى السياسة وطلَبِ الوظائف والجاه فى ظروف ضيقة عسيرة على الحاكمين والمحكومين معاً ، فأصابه من ذلك بلاء شديد .

وقد أحصى الدكتور عبد العزيز عبد المجيد شيوخ ابن الأبار وترجم لكل منهم ، ولهذا فسنكتفى بالقول بأنه أخذ القرآن والقراءات عن أبيه ، وأخذ الفقه والحديث والمسائل وعقد الشروط عن أبى عبد الله محمد بن أيوب بن نوح السرقسطى (٥٣٠ ــ ٦٠٨ / ١١٣٥ ــ ١٢١٢) ، وعن محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن أبى زاهر (توفى فى رجب ٦٣٤ / ١٢٣٧) ، وأخذ الحديث أيضاً عن أبى الخطاب أحمد بن محمد بن عمر بن محمد بن واجب القيسى (٥٣٧ ــ ٦١٤ / ١١٤٢ ــ ١٢١٧) وعلى هذا الشيخ أخذ « الأخبار » أى درس التاريخ ، وهو العلم الذى بلغ ابن الأبار فيه شأوه ، ولابن الأبار شيخ آخر فى التاريخ هو أبو سليمان داوود بن سليمان .. بن حوط الله الأنصارى (٥٥٢ ــ ٦٢١ / ١١٥٧ ــ ١٢٢٤) ، فقد كان ابن حوط الله من المعنيين بالأخبار وممن كتبوا فهرسة لشيوخهم ؛ وأخذ النحو والأدب عن محمد بن محمد بن سليمان بن محمد بن عبد العزيز الأنصارى (٥٦٣ ــ ٦١٠ / ١١٦٧ ــ ١٢١٣) وعن أبى عبد الله محمد بن إبراهيم بن مسلم البكرى (توفى سنة ٦٢٨ / ١٢٣٠) وأبى عامر نذير بن وهب بن لب بن عبد الملك بن نذير الفهرى (٥٥٨ ــ ٦٣٦ / ١١٦٢ ــ ١٢٣٨) وأبى محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن مطروح القيسى (٥٧٤ ــ ٦٣٥ / ١١٧٨ ــ ١٢٣٧) ، وقد أورد ابن الأبار فى ترجمته لابن مطروح هذا خبرين لهما أهمية بالنسبة لحياة ابن الأبار نفسه ، ولتاريخ

بلنسية فى أيامه أيضاً ، وذلك أنه ولى قضاء دانية فى آخر عمره ، ثم عزل عنه وتولاه بعده ابن الأبار سنة ٦٣٣ /١٢٣٥ — ١٢٣٦ ، ثم استعفى ابن الأبار من قضاء دانية ، فعاد إليه ابن مطروح لفترة قصيرة إذ أنه توفى سنة ٦٣٥ / ١٢٣٧ — ١٢٣٨ « والروم محاصرون بلنسية » .

غير أن أكبر أساتذة ابن الأبار وأبعدهم أثراً فى حياته هو أبو الربيع سليمان ابن موسى بن سالم بن حسان الحميدى الكلاعى (٥٦٥ — ٦٢٤ / ١١٦٩ — ١٢٢٧) ، فقد كان أبو الربيع كبير علماء بلنسية فى عصره ، وإليك سيرته كما رواها ابن الأبار فى « التكملة » لتستبين النواحى التى أعجبت ابن الأبار فى شيخه هذا واجتهد فى الأخذ بها ، قال بعد ذكره شيوخه : « ...وعنى أتم عناية بالتقييد والرواية ، وكان إماماً فى صناعة الحديث بصيراً به ، حافظاً حافلا عارفاً بالجرح والتعديل ، ذاكراً للمواليد والوفيات ، يتقدم أهلَ زمانه فى ذلك وفى حفظ أسماء الرجال ، خصوصاً من تأخر زمانه وعاصره . وكتب الكثير ، وكان حسن الخط لا نظير له فى الإتقان والضبط مع الاستبحار فى الأدب والاشتهار فى البلاغة ، فرداً فى إنشاء الرسائل ، مجيداً فى النظم ، خطيباً فصيحاً مفوهاً مدركاً حسن السرد والمساق لما يقوله مع الشارة الأنيقة والزى الحسن : وهو كان المتكلم عن الملوك فى مجالسهم والمبينَ عنهم لما يريدون على المنبر فى المحافل . ولىَ خطابة بلنسية فى أوقات. وله تصانيف قصيرة فى فنون ، وله كتاب « الاكتفاء مما تضمنه من مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم والثلاثة الخلفاء » فى أربعة مجلدات ، وكتاب حافل فى معرفة الصحابة والتابعين لم يكمله ، وكتاب فى أخبار البخارى وترجمته ، وكتاب « الأربعين » وتصانيف سوى ذلك كثيرة فى الحديث والأدب والخطب ، وإليه كانت الرحلة فى عصره للأخذ عنه . أخذتُ عنه كثيراً ، وانتفعت به فى الحديث كل الانتفاع ، وحضنى على هذا التاريخ (أى كتاب التكملة) وأمدنى من تقييداته وطُرَفه بما شحنته به . مولده فى رمضان سنة ٥٦٥ ، واستشهد بكائنة أنيشة على ثلاثة فراسخ من بلنسية ،

وكان أبداً يحدثنا أن السبعين منتهى عمره لرؤيا رآها ، وهو آخر الحفاظ والبلغاء المترسلين بالأندلس . قلتُ : أكثرُ هذا عن ابن مسدى ، وقال : لم ألق مثله ، كان مبرزاً فى فنون » (ترجمة رقم ١٩٩١ ، التكملة ٢ / ٧٠٨ – ٧٠٩) .

وأبو الربيع سليمان هذا نموذج لطراز من أهل العلم فى الأندلس تستطيع أن تسميهم « شيوخ » العصر أى الذين انتهت إليهم الصدارة فى علوم الدين والفقه والفتيا فى أيامهم ، ويصدق على كل منهم ماقاله ابن الأبار عن أبى بكر محمد بن عبد الله بن الجد : « ... وكان فى وقته فقيه الأندلس وحافظ المغرب لمذهب مالك غير مدافَع ولا منازَع ، لا يجاريه أحد فى ذلك ولا يدانيه » (التكملة رقم ٨٢٥ جـ ١ ص ٢٥٩) . والخصائص الرئيسية لأولئك الشيوخ غزارة العلم وصدق الإيمان ، وشرف البيت واتصال الرياسة فيه ، وفصاحة اللسان والقدرة على الكتابة والخطابة فى بلاغة ، ثم الاهتمام بشؤون الجماعة الإسلامية والأخذ من السياسة بنصيب ، مع التزام الحق والسمت والعفاف .

وفى عصور الأندلس الأولى ، أيام الإمارة والخلافة ، كان أولئك الشيوخ عمداً من عمد السلطان ، كما نرى فى حالات عبد الملك بن حبيب ويحيى بن يحيى الليثى وأصبغ بن خليل . أما بعد زوال الخلافة وانتشاب الفتنة وتلاشى السلطان السياسى العام فقد أصبح أولئك الشيوخ رموزاً على السلطان الوحيد الباقى وهو سلطان الدين والعلم ، وصاروا رموزاً على قوة الدين وسيادته ومعقدَ الآمال فى بعث الدولة وعودة هيبة الإسلام فى شبه الجزيرة ، فهم عمد الدين وجماعته ، وهم فى واقع الأمر زعماء الجماعة الإسلامية الأندلسية وقادتها الحقيقيون . وكلما زاد السلطان السياسى تخلخلا ازداد أولئك الشيوخ جلالا وزاد شعورهم بمسؤولياتهم ، فلم يعودوا مجرد فقهاء بل زعماء أيضاً يتحلون بما تتطلبه الزعامة السليمة من صدق وإخلاص وجرأة واستعداد لبذل النفس فى سبيل الجماعة الإسلامية ، مع الحرص على العلم وهو عماد سلطانهم الأول .

وقد يتقارب اثنان أو ثلاثة من الفقهاء فى صفاتهم ، ولكننا نجد فى الغالب تسليما لواحد بالرياسة والتقدم . فنى أيام أبى على الحسين بن سكرة الصدفى (٤٥٤–٥١٤/ ١٠٦٢ – ١١٢١) عاش أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الجد (٤٥٠–٥٢٠/١٠٥٨–١١٢٦) ولكن الزعامة كانت لأبى على بن سكرة الصدفى ، وقد دفع ثمنها باستشهاده فى معركة كُتَنْدَة . وقد عاصرهما أبو بكر بن العربى ، وكان من أجل العلماء وأوفرهم هيبة ، ولكنه فر من معركة كتندة ثم أقحم نفسه فى السياسة ، ولم يستطع لهذا أن يرث مكان الصدفى وإنما ورثه القاضى عياض بن موسى بن عياض (٤٧٦–٥٤٤/١٠٨٣–١١٤٩ ، ٥٠) ، وقد ثبتت زعامته عند تصديه للموحدين وصموده للحق ونفيه إلى المغرب . ثم كان شيخَ الجيل الثانى أبو بكر محمد بن عبد الله بن يحيى بن الجد (٤٩٦ – ٥٨٦/ ١١٠٢ – ١١٩٠) وكان رجل الأندلس وشيخه غير مدافع على أيام أبى يعقوب يوسف وابنه أبى يوسف يعقوب المنصور ؛ ثم انتقلت المشيخة إلى أبى الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد الحفيد (٥٢٠ – ٥٩٥/ ١١٢٦–١١٩٩) وكان بينه وبين الموحدين من الخلاف ما أدى إلى الإساءة إليه ونفيه ثم عودته ؛ ثم كان الشيخَ بعد ذلك أبو الربيع سليمان بن سالم الكلاعى (٥٦٥–٦٣٤/١١٦٩–١٢٣٧) شيخ ابن الأبار ، وقد استشهد مجاهداً فى سبيل الإسلام فى معركة أنيشة .

ونصل إلى أيام ابن الأبار ، فنجده سائراً فى طريق أولئك الشيوخ ناظراً إلى سيرهم آخذاً بالأصول التى ساروا عليها ، ولكن الظروف فى الأندلس كانت قد تغيرت مع الأيام تغيراً حاسماً جعل استمرار هذا الخط الجليل مستحيلا ، فإن الجماعة الإسلامية نفسها – التى بقيت متماسكة رغم كل شىء حتى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى / العقد الثالث من القرن الثالث عشر الميلادى – أصيبت بكوارث كبرى حلت عقدها وضعضعت كيانها السياسى والاجتماعى ولم يتماسك ما بقى منها فى منطقة غرناطة إلا بعد فترة طويلة من الفوضى والكوارث المتوالية .

عصر ابن الأبار

ذلك أن الصراع الطويل بين الإسلام والنصرانية حول مصير الأندلس تحدد مصيره بصورة حاسمة فى نهاية العقد الأول من القرن السابع الهجرى إثر معركة العِقاب (١٥ صفر ٦٠٩ / ١٧ يوليو ١٢١٢) بعد قرابة القرنين من صراع ضارٍ أنفق الجانبان الإسلامى والنصرانى فيه أقصى ما استطاعا من الجهد فى سبيل أراض عظيمة وبلاد كبرى أراد القدر أن تحرم ممن ينهض من أهلها لجمع أمرها والدفاع عنها . وقد كان هذا الصراع سجالا بين مد وجزر طالما وقف المرابطون فى الميدان ، ثم مال الميزان وشالت كفة الإسلام بعد زوال أمر هذه العصبة من المجاهدين أولى القوى وحلول الموحدين محلهم .

وقد بذل الموحدون ما استطاعوا ولكنهم كانوا أولا وقبل كل شىء أصحاب إمبراطورية كبرى تمتد حدودها من طرابلس فى الشرق إلى مشارف المحيط الأطلسى من الأشبونة إلى ما يعرف اليوم بالسنغال ، وكان على الموحدين أن يظلوا على أهبة الحرب على هذه الحدود المترامية وفى داخل إمبراطوريتهم نفسها ، وكان من المستحيل ماديا أن يستمروا محاربين بنفس القوة فى جبهات متعددة كهذه ، وكانت الجبهة الأندلسية أضعف جبهاتهم وأحفلها بالخطر ، لأن أهل الأندلس أنفسهم كانت قد أكلتهم الحروب والفتن المتوالية وفقدوا روح الوحدة وحرموا القادة الصالحين فى وقت كانوا فيه أحوج ما كانوا إلى قادة قادرين ، لأن ممالك إسبانيا النصرانية كانت تقوى على حسابهم يوماً بعد يوم ، وقد أسعدها الحظ بملوك وأمراء أقوياء ذوى همة ووعى إلى الهدف الذى يجمعهم رغم ما كان بينهم من خلافات .

وخلال القرن الهجرى السادس نرى بوضوح ممالك إسبانيا النصرانية تنتظم وتقوى وتثبت فى أقاليمها وتجمع قواها وتتقدم إلى الجنوب بخطوات ثابتة وعن سياسة واضحة أعانتهم البابوية فى رسمها ، وشدت أزرهم بلاد

أوروبية أخرى نهضت واستقرت أمورها قبلهم ، ومن هنا فقد كان الصراع غير متكافئ بوجه من الوجوه .

وقد تماسكت جبهة الأندلس الإسلامى بعد تضحيات كثيرة أيام خلفاء الموحدين الثلاثة الأول ، ثم تداعت على أيام الرابع منهم وهو محمد الناصر ابن أبى يعقوب يوسف المنصور (٥٩٥ — ٦١١ / ١١٩٩ — ١٢١٥) وظهر هذا التداعى فى صورة انهيار سريع بعد معركة العِقاب ، وقد كانت قاصمة الظهر لدولة الموحدين فى الأندلس والمغرب أيضاً .

كان الناصر يشعر قبل هذه المعركة باستحالة الاستمرار فى الدفاع عن دولة مترامية الأطراف كهذه ينتصب لها أعداء ذوو خطر على كل شبر من حدودها بل فى كل ناحية من نواحيها ، فاختار واحداً من خيرة الموحدين وأقامه حاكما عاما على كل الجناح الشرقى من إمبراطوريته ، وهو أبو محمد عبد الواحد بن أبى حفص (سنة ٦٠٣ / ١٢٠٦ — ١٢٠٧) . وكان هذا الإجراء فى حقيقته تقسيما للدولة إلى دولتين ، لأن أبا محمد عبد الواحد ابن أبى حفص وخلفاءه لم يلبثوا أن أصبحوا دولة قائمة بنفسها .

ولو أن محمدا الناصر استأنى قبل أن يخوض معركة االعقاب لكان من الممكن أن يكون حظه فيها أحسن ، ولكنه سار إليها وقسمة الإمبراطورية ما زالت فى الطريق ، ثم إن فتنة بنى غانية كانت قد أفسدت الجانب الشرقى من الأندلس ، وكان لا بد بعد القضاء عليها من تنظيم وترتيب واستجماع قوى . ولكنه — رغم حسن نيته وإخلاصه للدولة وللإسلام — لم يكن بالقائد العسكرى الذى تتطابه جبهة مهيضة يقف فيها خصم عنيد أضْرته الرغبة فى الانتقام لهزيمة يوم الأرك .

ودخلت فى المعركة عوامل أخرى كانت كلها على محمد الناصر ، منها أن رؤساء المقاتلين معه — سواء من الموحدين أو الأندلسيين أو جماعات عرب الهلالية — لم يقدروا أهمية المعركة ولم يدر بخلد أحد منهم أن مصير

الأندلس كله كان فى الميزان فى ذلك اليوم ، فانساقوا مع عصبيات ونوازع شخصية وغير شخصية ، ومنها أن صناعة السلاح والدروع وفن الحرب بصفة عامة كان قد تقدم تقدما بعيدا فى إسبانيا النصرانية نتيجة للاتصال الوثيق مع بقية بلاد غرب أوروبا . ومن هنا دارت على المسلمين هزيمة قاصمة واصطلى أبرياء المقاتلين والمتطوعة بنار حاصدة أكلتهم أكلا ، وربما كان عدد من استشهد من المسلمين فى تلك المعركة أكبر من عدد من استشهد فى أى معركة فى تاريخ الإسلام كله حتى ليقول صاحب روض القرطاس إن السائر فى ريف المغرب بعد ذلك كان يقطع المسافات الطويلة دون أن يرى رجـــلا ، لأن زهرة الرجال راحت صرعى فى ذلك اليوم الأسيف .

وأمثال هذه المعارك تخلف فى النفوس آثاراً لا تمحى ، فإن القلائل من الأندلسيين الذين نجوا من السيوف فى ذلك اليوم تفرقوا إلى بلادهم وقد استقر فى نفوسهم شعور بأن الأمر قد ضاع ولا حيلة فى تلافيه ، وألا خير يرتجى من الرؤساء والقادة أمام عدو مستأسد متفوق ، أى أن معنوية المناضلين عن الجبهة الإسلامية ضعفت وخامرها الخوف من العدو ، ومن ثم فلا غرابة بعد ذلك أن نجد الفئة القليلة من النصارى تستولى على البلد الإسلامى الكبير دون مشقة بل دون قتال فى كثير من الأحيان ، لأن اليأس والخوف ملأا قلوب الناس ، ولم يعد لهم ما يحفظ عليهم الأمل فى البقاء إلا التفافهم حول من وُجد فى بلادهم من الشيوخ الذين ذكرنا بعضهم :

وفى أيام أبى يعقوب يوسف المستنصر — خليفة الناصر وخامس خلفاء الموحدين — تلاشت بقية الأمل فى الموحدين ، فقد نجم لهم بنو مرين وبدأوا معهم صراع المصير فى المغرب ، ولم يكن للموحدين مفر من أن يتجرعوا نفس الكأس التى جرعوها هم للمرابطين فى مثل هذه الظروف قبل قرابة القرن من الزمان .

وخلال السنوات العشر التى دامها حكم هذا المستنصر تغيرت نفسية أهل البيت الموحدى وأشياخ حركتهم ، فلم يعودوا بيتا متحدا تجمعه معنوية واحدة وإنما أمراء وأشياخا اقتعد كل منهم قاعدة من قواعد الملك الموحدى أو وظيفة من وظائفه الرئيسية فى مراكش وعينه متجهة إلى عرش الخلافة يمنى نفسه بها أو يمنيه بها من حوله ، ويتمنى فى نفس الوقت فساد الأمر على من تولى هذا العرش . وقد ظهرت هذه المطامع بصورة خاصة عند بعض من بقى من أولاد أبى يوسف يعقوب المنصور وأبناء عمومتهم أولاد أبى حفص عمر بن عبد المؤمن .

وقد ابتلى الأندلس فى أواخر القرن السادس وأوائل السابع الهجريين باثنين من أبناء يعقوب المنصور ، هما : أبو محمد عبد الله وكان يتولى مرسية ، وأبو العلا إدريس وكان يتولى قرطبة ؛ وشاركهما فى هذا الطمع وأربى عليهما فيه ابن عمهما عبد الله بن أبى حفص بن عبد المؤمن الذى عرف أهل بيته بالبَيّاسِيِّين ، وكان يتولى إشبيلية ثم بلنسية ؛ وسار فى طريقه اثنان من أبنائه هما أبو زيد عبد الرحمن وقد خلف أباه فى بلنسية وشاطبة ودانية وجزيرة شُقر ، وأخوه عبد الله الذى اشتهر بالبياسى وكان يتولى إشبيلية . أى أن أوائل النفر من البيت الموحدى كانوا يتقاسمون ملك ما بقى للإسلام فى الأندلس ، ولو أخلصوا وصدقوا واتحدوا لأغنوا فى الحفاظ على هذا الباقى ، ولدام لهم الملك الذى اقتعدوه .

ولكن شيطان الطمع والخلاف غلب عليهم ، فنهض أكبرهم أبو محمد عبد الله بن أبى يوسف يعقوب بن عبد المؤمن وأنكر بيعة الموحدين فى مراكش لعم مسن له هو أبو محمد عبد الواحد فى ذى الحجة ٦٢٠/ مارس ١٢٢٤ ، ونادى بنفسه خليفة بعد شهرين من ولاية عبد الواحد وتلقب بالعادل ، وأيده أخوه أبو العلا إدريس صاحب قرطبة وابنُ عمه عبد الله البياسى صاحب إشبيلية ، وتوقف عن البيعة له ابن عمه أبو زيد عبد الرحمن

ابن أبى عبد الله محمد بن أبى حفص بن عبد المؤمن صاحب بلنسية وما والاها (وهو أخو عبد الله البياسى) . وعبر العادل البحر وخلع عمه عبد الواحد واستقر خليفة فى مراكش ١٢٢٥/٦٢٢ ، وكان يتوجس خيفة من ناحية ابن عمه أبى عبد الله البياسى ، فأضاف إليه قرطبة استرضاءً له ، ولكنه لم يكن ليرضى بأقل من الخلافة ، فما هى إلا شهور حتى خلع طاعة العادل ، وأيس من عون الموحدين فانضم إلى فرناندو الثالث ملك قشتالة ، وسلم له عددا من بلاد المسلمين منها قَيْجاطة Quesada وباجة Baza ولوشه Loja ، ثم سار بمن معه من القشتاليين ليهاجم أبا العلا ادريس فى إشبيلية ، فثبت له هذا ورده خائبا (صفر ٦٢٣/ فبراير ١٢٢٦) ، فمضى يضرب على غير هدى حتى قام عليه أهل قرطبة وقتلوه ، إذ ترامى إلى علمهم أنه خلع الإسلام ودخل فى النصرانية .

ولم يطل الأمر للعادل بعد ذلك ، لأن خلافا شديدا نجم بينه وبين رجال دولته وقادته من الموحدين فقبضوا عليه ثم قتلوه بعد ١٤ يوما (٦٢٤/ ١٢٢٦ — ١٢٢٧) . وفى هذه الأثناء كان أخوه أبو العلا إدريس قد نادى بنفسه خليفة من إشبيلية ، وتلقب بالمأمون وخاض عمار حروب طويلة مع محمد بن يوسف بن هود الذى كان قد نادى بنفسه أميراً على الأندلس كما سيجىء . ثم صور للمأمون رأيُه الفائل ألا معنى للبقاء فى الأندلس أو محاولة الحفاظ على ما بقى منه ، فجمع مَن عنده من جند فى إشبيلية ومن كان منهم فى قرطبة وجيان وما إليها وعبر البحر إلى المغرب وبويع له بالخلافة فى شوال ٦٢٤/ سبتمبر ١٢٢٧ . ولم يتمتع هذا المأمون بالأمان يوما واحداً ، إذ قام عليه المنافسون من كل ناحية وقضى سنوات حكمه القصير (٥ سنوات و ٣ أشهر) فى حروب وهروب ومنازعات ووقائع حتى أدال الله منه بابنه المسمى عبد الواحد المتلقب بالرشيد .

والمهم لدينا أن الدولة الموحدية انتهت فى الأندلس بتصرف المأمون

هذا ، فلم يبق من أمرائهم فيها إلا أبو زيد عبد الرحمن بن أبى عبد الله ابن أبى حفص عمر بن عبد المؤمن الذى ذكرناه ، وكان يملك بلنسية وشاطبة وجزيرة شقر ؛ أى معظم شرق الأندلس . أما بقية بلاد الأندلس الباقية ، وحدُّها الشمالى مجرى الوادى الكبير ، فقد وقفت مكشوفة لا يدفع عنها أحد ، فتجمع مشايخ كل بلد وذوو الهمة من رجاله وتولوا أمر بلادهم والدفاع عنه قدر الطاقة ، أو اختاروا من يقودهم ، وأظهر أولئك الرؤساء محمد بن يوسف بن هود الجذامى الذى سنتكلم عنه .

وهكذا بدت جبهة الأندلس كلها من مرسية إلى إشبيلية مكشوفة أمام أعداء أقوياء لا ينقصهم الحافز للتقدم والاستيلاء على هذه البلاد الكبيرة التى وقف أهلها والخوف ملء قلوبهم تحت رحمة الأعداء .

وقد سار التقدم النصرانى فى ذلك الحين ، ابتداء من العقد الثالث من القرن السابع الهجرى / العقد الثالث من القرن الثالث عشر الميلادى ، فى ثلاثة تيارات : الأول وجهته غرب الأندلس وتولاه أمراء البرتغال ، والثانى وجهته حوض الوادى الكبير وتولاه ملوك قشتالة ، والثالث وجهته شرق الأندلس وتولاه ملوك أرغون . وكانت هذه الممالك الثلاث تختلف فيما بينها وقد تقع الحروب بين جيوشها ، ولكنها كانت تقف صفاً واحداً إذا تعلق الأمر بحرب مع المسلمين ، وكانت البابوية تعمل فى جد لصرف ملوكها عن النزاع مع إخوانهم فى الدين وتوجيه أنظارهم نحو الغنائم السهلة التى تنتظرهم إذا ساروا جنوباً .

أضف إلى ذلك أن هذه الممالك الثلاث رزقت منذ النصف الثانى من القرن الحادى عشر إلى منتصف الثالث عشر ملوكا ذوى قدرة وسياسة وتصميم على مواصلة الحرب مع المسلمين ، وطالت إلى جانب ذلك أعمار الكثيرين منهم ، فانفسحت أمامهم الآجال للعمل والتجربة واكتساب الخبرات وتعويض الهزائم إذا وقعت ، ففيما بين سنتى ١٠٧٢ و ١٢١٤ (٤٦٥ –

٦١١ هـ) — أى قرابة القرن ونصف — حكم قشتالة ثلاثة ملوك كبار فى تسق ، لم تتخلل أيامهم إلا خمس عشرة سنة حكمتها الملكة أورّاكا بعد ألفونسو السادس ، وهؤلاء الملوك هم ألفونسو السادس والسابع والثامن ، وهذا الأخير حكم وحده ٥٦ سنة (١١٥٨ — ١٢١٤) عاصر خلالها أربعة من خلفاء الموحدين هم يوسف ويعقوب المنصور والناصر والمستنصر ، وفى هذا الحكم الطويل ضاهاه خايمه الأول المعروف بالفاتح ملك أرغون ، فقد حكم ٦٣ سنة (١٢١٣ — ١٢٧٦) وفرناندو الثالث ملك قشتالة فقد حكم ٣٥ سنة (١٢١٧ — ١٢٥٢) .

وفرناندو الثالث هذا يكاد أن يكون أشد ملوك إسبانيا النصرانية عزماً فى مواصلة الحرب ضد المسلمين ، وهو الذى استولى على قواعد الوادى الكبير الرئيسية : أندوخر Andujer وبيّاسة Baeza (٦٢٣ / ١٢١٧) وقرطبة (٢٣ شوال ٦٣٣ / ٢٩ يوينو ١٢٣٦) وجيان (٦٤٤ / ١٢٤٦) وقَرمونة ، ثم استولى على إشبيلية (٦٤٦ / ١٢٤٨) . فأما قرطبة فقد سقطت على أهون سبيل ، وقاومت إشبيلية مقاومة عنيفة ولكنها قصيرة ، أما جيان فقد أخذت دون أن يجرَّد سيف من قرابه .

ولم ينجم بين مسلمى الأندلس خلال النصف الأول من القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى إلا مغامرون أوتى بعضهم شجاعة ونجدة ، كان كل منهم يعمل منفرداً ويجرى فى نشاطه على غير هدى ، ولم يسلم واحد منهم مع ذلك من الخصوم والأعداء من إخوانه ، مما ضيع جهودهم وقصَّر أيامهم ؛ وأكبر هؤلاء جميعاً محمد بن يوسف بن هود الجذامى ومحمد ابن يوسف بن نصر بن الأحمر .

وابن هود هذا — وقد تسمى بسيف الدولة وتلقب بالمتوكل — نموذج من زعماء الأندلسيين فى ذلك العصر (سيترجم له ابن الأبار فى الحلة) . ظهر وقد نادى المأمون الموحدى بنفسه خليفة فوقعت بينهما حروب طويلة ، ثم انسحب المأمون من الميدان فانضم الكثيرون من جند الأندلسيين الذين كانوا يعملون فى صفوفه إلى سيف الدولة المتوكل بن هود ، فاستقل هذا

بمرسية وجمع قوة عسكرية طيبة ودعا للخليفة العباسى وأتته من بغداد الخلعة واللواء ، فحاز شرق الأندلس كله ، ورهبه النصارى، وأطلسوا عليه اسم ثافادولا (سيف الدولة) وطرد من مرسية أميراً موحدياً كان يدعيها لنفسه هو أبو العباس بن أبى موسى بن عبد المؤمن ، وهزم السيد أبا زيد عبد الرحمن بن أبى عبد الله بن أبى حفص بن عبد المؤمن صاحب بلنسية واضطره إلى الدخول فى طاعته ، وأصبح زعيما لمن بقى من المسلمين فى الأندلس .

وقد أرخ له ابن الخطيب فى « أعمال الأعلام » بأوفى مما فعل ابن الأبار فى « الحلة » ، ويهمنا من كلامه عنه قوله : « وجرت على ابن هود هزائم شهيرة ووقائع مذكورة ؛ أوقع به السلطان أبو عبد الله (محمد بن يوسف) بن نصر ثلاث مرات آخرهن سنة ٦٣٣ أو ٦٣٤ ، وكان اللقاء بينه وبين المأمون إدريس أمير الموحدين بشرق الأندلس سنة ٦٣٥ ، فهزمه المأمون هزيمة كبيرة ، ولاذ منه بمرسية وامتنع بها ، إلا أن المأمون شغله أمر الفتنة الواقعة بمراكش ، فصرف وجهه إليها ، وثاب الأمر لابن هود ، فدخلت فى طاعته المرية ، ثم غرناطة ، ثم مالقة . وفى سنة ٦٢٧ تحرك بفضل شهامته فى جيوش عظيمة من المسلمين لإصراخ ماردة ، وقد نازلها العدو وحاصرها ، ولقى جيش العدو بها وطاغيته ، فلم يتأنّ — زعموا — حتى دفع بنفسه العدوّ ، ودخل فى مصافه ، وفقده الناس لما غاب عنهم ، فلم يرجع إلا وقد انهزموا مدبرين ، وكانت هزيمة شنيعة ، واستولى العدو على مدينة ماردة يومئذ ... »

فهذا رجل تصدى للأمر وأثبت شهامة ونجدة ، ولكن أنداده من المسلمين تصدوا له وواقعوه المرة بعد المرة ، ثم خذله جنده ، وكان من الطبيعى لهذا ألا يوفق إلى شىء ذى أثر .

وبينما كان ابن هود يقطع الجزيرة من شرق لغرب كان قائد آخر هو محمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر يجمع صفوفه فى بلده أرجونة قرب جيان ويستعد لحربه والحلول محله . ظهر ابن الأحمر سنة ٦٢٩ / ١٢٣١ — ١٢٣٢

ثم تقدم وملك جيان سنة ٦٣٠ ٪ ١٢٣٢ — ١٢٣٣ ثم قرطبة ثم إشبيلية ، ثم استقر فى غرناطة (٦٣٥ / ١٢٣٧ — ١٢٣٨) فضاقت الأمور بين الرجلين ووقعت الحرب بينهما وهلك فيها من المسلمين كثيرون . وكان ابن الأحمر سياسياً بعيد النظر ، استبان من أول الأمر أنه لن يستطيع الثبات فى جبهة الوادى الكبير ، ولهذا اتجه نحو غرناطة ، وعول على أن يجعلها قاعدة ملكه مكتفياً بالطرف الجنوبى من شبه الجزيرة ، ولهذا حالف ملوك قشتالة وعاونهم واعترف لهم بالرياسة عليه مما نفر المسلمين منه ، فطرد أهل قرطبة ثم إشبيلية جنده ، فلم يحفل كثيراً وركز همه فى إقليم غرناطة . وعلى الرغم مما وقع بين ابن هود وابن الأحمر من حروب فإنه يمكن القول بأنه لو لم يكن سيف الدولة المتوكل بن هود لما استطاع الغالب بالله محمد بن يوسف بن نصر أن ينشئ مملكة غرناطة ، فقد شغل ابن هود القشتاليين وأخافهم خوفاً شديداً ، وحفزهم على موالاة خصمه ابن الأحمر وتأييده ، وفى ظل هذا التأييد قامت مملكة غرناطة ، وأنسأ الله فى عمرها بعد ذلك قرنين من الزمان .

* * *

شرق الأندلس

وكان شرق الأندلس يجتاز فترة قلقة مضطربة من تاريخه منذ ذهاب أمر المرابطين ومجىء الموحدين ، فقد نجمت فيه سلسلة من أفذاذ القادة والمغامرين أكبرهم أبو عبد الله محمد بن سعد بن مردانيش ، وكان أبوه فى أوليته من قواد المرابطين يعمل فى صفوف يحيى بن غانية ، وكان له بلاء عظيم فى موقعة أفراغة ، فلما مات بدا لمحمد بن سعد أن يستقل بشىء من شرق الأندلس ، فاستقر فى مرسية وحازها من جمادى الأولى ٥٤٢ / أكتوبر ١١٤٧ . وكان فارسا نجدا عظيم البأس ، تمكن بالاتفاق مع أكناد برشلونة من أن يسود شرق الأندلس كله لقاء إتاوة سنوية ثقيلة قدرها مائة ألف دينار ، كما يقول ابن الخطيب فى « أعمال الأعلام » ، وشد أمره بمصاهرة نفر من الثائرين بشرق الأندلس منهم يوسف بن هلال وكان قد

استقل بحصن مُطْرِيش وإبراهيم بن أحمد بن مفرج بن هَمُشْك الذى انتزى ببعض حصون إقليم مرسية مثل شقويش وشقورة ، ثم انقلبوا عليه ووقعت بينهم فتن طويلة يقص ابن الأبار فى « الحلة » وابن الخطيب فى « أعمال الأعلام » وابن عذارى فى الجزء الثالث من « البيان المغرب » طرفا منها .

ولجأ محمد بن سعد فى أثناء ذلك إلى النصارى فاعتضد بهم واتخذ لنفسه جنداً منهم وأثقل على رعيته بالضرائب ، فنفر منه الناس ، وتخلى عنه أخوه أبو الحجاج يوسف بن سعد بن مردانيش ودخل فى طاعة الموحدين أيام أبى يوسف يعقوب المنصور . ووجد محمد بن سعد نفسه وحيدا دون نصير وقد علت به السن وقاربه الموت ، فكاتب أبا يوسف يعقوب وتخلى له عن مرسية وبقية ما بيده وأرسل أولاده إلى الخليفة الموحدى وأوصاه بهم ، فرق يعقوب المنصور لهذا الصنيع وقرَّب أبناء محمد بن سعد وأقام كبيرهم أبا القمر هلال بن محمد بن سعد عاملا على إشبيلية ، وتزوج ابنة لمحمد بن سعد تسمى الزرقاء فى ربيع الأول ٥٧٠/ أكتوبر ١١٧٤ فحظيت عنده وكان لها أبعد الأثر فى بقاء بنى مردانيش فى السلطان ، وأقام عمها أبا الحجاج يوسف بن سعد بن مردانيش أميراً على بلنسية وأخاه غانم بن سعد بن مردانيش أميراً على أسطول الموحدين فى سبتة . وبعد موت محمد ابن سعد أصبح رأس البيت أخوه أبو الحجاج .

وفى أيام محمد الناصر هبط أمر أبى الحجاج بن سعد بن مردانيش ، ولكنه ظل أميراً على بلنسية حتى سنة ٥٨٢/١١٨٦ . وكان له أولاد كثيرون أهمهم أبو الحملات مدافع وأبو المظفر غالب وأبو الحارث سبع وأبو سلطان عزيز وأبو ساكن عامر وأبو محمد طلحة ، وكان كل منهم يتولى حصنا أو ناحية من نواحى بلنسية ومرسية :

وفى سنة ٦٠٧/١٢١٠ أقام محمد الناصر أبا عبد الله بن أبى حفص

عمر بن عبد المؤمن واليا على بلنسية ثم خلفه عليها ابنه أبو زيد عبد الرحمن ، والمراجع تخلط بين أبي زيد هذا وعم له يحمل نفس الاسم ، ولكن أبا زيد العم لم يكن قط أميرا على بلنسية ، إنما كان أميرا على ميورقة سنة ٥٩٩/ ١٢٠٢ — ١٢٠٣ ثم توفى بعقب ذلك بعد تاريخ طويل فى دولة الموحدين . أما أبو زيد المراد هنا فهو ابن عبد الله بن أبى حفص عمر بن عبد المؤمن ، وهو أخو عبد الله البياسى الذى ذكرناه ، وقد نشأ هو وأخوه وبقية بيته فى بياسة فعرفوا لذلك بالبياسيين ، وكانوا فريقا قليل الإخلاص شديد الأنانية حريصا على الحياة والملك بأى ثمن .

وقد رأينا ما فعله عبد الله البياسى من حرب المسلمين والانضمام إلى القشتاليين ثم الذهاب إليهم جملة ؛ ولم يكن أخوه أبو زيد هذا بأحسن منه ، فقد أمسك ناحيته بعون النصارى وأداء الإتاوة لهم ، وبفضلهم استطاع التغلب على بنى مردانيش ، فاكتفى أكبرهم أبو الحملات مدافع بن أبى الحجاج يوسف بن سعد بن مردانيش بحصن أُبَّدَه ، وقد استشهد فى بعض المواقع شابا ، فخلفه ابنه أبو جُميل زيان بن أبى الحملات وضيق على أبى زيد عبد الرحمن بن أبى عبد الله بن أبى حفص عمر فى بلنسية ، فأيس هذا من المسلمين جملةً ، فهو على خلاف مع الموحدين لا يستطيع طلب عونهم أو اللجوء إليهم ، والمسلمون فى بلنسية كارهون له يتربصون به الدوائر ، ففكر فى اللجوء إلى أنصاره من النصارى وخاصة خايمه الأول صاحب أرغون ، وذهب إليه ليفاوضه فى معاونته ، ولكن خايمه لم يجد فيه ما يستحق العناء ، وإزاء هذا عرض عليه أبو زيد أن ينتقل إلى بعض حصونه ويقيم فيه تابعاً له ، وتم الاتفاق على ذلك ، واستقر فى حصن شُبُرْب ، ويذهب بعض المؤرخين إلى أنه دخل هناك فى النصرانية ، وهو أمر نستبعده ، لأن مفارقة الدين فى سن مثل هذه أمر غير يسير ، خاصة من أمير موحدى مهما كان طبعه ورأينا فيه . واستقر الأمر فى بلنسية لأبى جميل زيان ابن مردانيش .

وقد كتب ابن الأبار لأبى عبد الله والد أبى زيد عبد الرحمن ، ثم كتب لأبى زيد وخرج معه لملاقاة الملك خايمه ، ثم رجع وحده عندما رآه يفضل مباينة دار الإسلام والإقامة فى بلاد ملك أرغون . وقد سكت ابن الأبار عن هذه الواقعة سكوتاً غريباً ، فلم يقل شيئاً ينير لنا هذه النقطة الهامة ، والمهم أنه عاد إلى بلنسية وعمل كاتباً لأبى جُميل زيان بعد ذلك .

وكانت بلنسية إلى ذلك الحين أسعد حالا من غيرها من كبريات مدائن الأندلس ، فقد نفعها قيام بنى مردانيش وابن همشك وبنى هود وابن الأحمر فى إقليمها أو قريباً منها ، لأن أولئك الرجال أخروا سقوطها وصرفوا الغزاة إلى غيرها مما كان أسهل منها ، وأتاحوا لأهلها بضع سنوات من الهدوء والأمان النسبيين ؛ نقول النسبيين لأن الوقائع فى إقليمها كانت على قدم وساق ، وكان أهلها يخرجون للقاء الأعداء كلما أمكنتهم الفرصة .

وكانت سن ابن الأبار إذ ذاك بعد الثلاثين بقليل ، وكان من شخصيات بلده الظاهرين ، فهو واحد من كبار العلماء ورجال الأدب ، وهو كاتب الرسائل للأمير أبى جُميل زيان بن مردانيش ، وكان يلتقى بأصحابه من العلماء وكبار أهل البلد فى قصر الإمارة ؛ من أولئك العلماء الذين ارتبط معهم برباط الصداقة أبو المطرف أحمد بن عبد الله بن عَميرة المخزومى وأبو الحجاج يوسف البياسى .

فأما ابن عَميرة فقد ولد فى بلنسية سنة ٥٨٠ / ١١٨٤ أى أنه كان أكبر من ابن الأبار بخمس عشرة سنة ، وقد رحل إلى المشرق للدراسة ولقاء الشيوخ ، وعاد إلى بلده ليتولى القضاء فى شاطبة ثم فى ميورقة حتى سنة ٦٢٧ / ١٢٣٠ إذ حضر تسليم الجزيرة لقوات خايمه الأول ملك أرغون ، وكتب كتاباً عن « كائنة ميورقة » بقيت لنا منه فقرات طويلة فى « نفح الطيب » للمقرى ، وقد غادر بلنسية بعد سقوطها سنة ٦٣٦ / ١٢٣٨ ، وتوجه إلى المغرب حيث كتب للرشيد الموحدى وتولى القضاء فى بضع نواح ، ثم انتقل إلى إفريقية حيث كتب للمستنصر الحفصى إلى أن

توفى سنة ٦٥٨ / ١٢٦١ أى فى نفس السنة التى توفى فيها ابن الأبار .

وقد أورد القلقشندى فى « صبح الأعشى » نص رسالة كتبها ابن عميرة هذا عن « طاغية الإفرنج » والمراد به هنا خايمه الأول ملك أرغون الذى استولى على ميورقة قبل أن يستولى على بلنسية . والغالب أن ابن عميرة اضطر للعمل فى الكتابة للملك خايمه بعد سقوط ميورقة وهو فيها ليحقن دمه ، حتى إذا أتيحت له فرصة الخروج منها والعودة إلى دار الإسلام فعل ، والحكاية تبقى رغم ذلك مستغربة مستنكرة من رجل فى مكانة أبى المطرف بن عميرة ، والفرق عظيم على أى حال بينه وبين رجل كأبى الربيع سليمان بن سالم .

وأما أبو الحجاج يوسف بن محمد بن إبراهيم الأنصارى البياسى فقد ولد فى بلنسية فى ربيع الأول سنة ٥٧٣ / ١١٧٧ أى أنه أكبر من ابن الأبار باثنتى عشرة سنة ، وكان أديباً حافظا اتجه إلى الأدب والتاريخ بصورة خاصة ، وهاجر إلى تونس بعد سقوط بلده بلنسية واستقر فى تونس يعلّم ويؤلف ، وأثرت عنه كتب مثل « الإعلام بالحروب الواقعة فى صدر الإسلام » و « الحماسة » وغيرهما ، حتى مات فى ذى الحجة سنة ٦٥٣ / يناير ١٢٥٦ .

* * *

سقوط بلنسية

فى ذلك الحين كان الخطر يقترب من بلنسية يوما بعد يوم ، لأن مملكة أرغون التى اتحدت مع إمارة قطلونية أيام ملكها پدرو الثانى أصبحت خلال النصف الأول من القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى من أقوى ممالك شبه الجزيرة وأهمها ، لأن عرش أرغون كان يضم — إلى جانب إقليم سرقسطة وحوض الإبرُه — دوقيتى پروڤنسة وروسيُّون فى جنوبى فرنسا ، وكان ملكها پدرو الثانى قد استولى على طركونة وطرطوشة وأطل على حدود إمارة بلنسية ؛ وتوفى پدرو الثانى قتيلا فى معركة موريت Moret بجنوبى فرنسا مخلفا ابنه الوحيد خايمه أو جاقه Jaime فى وصاية أمه مارية دِ مونبلييه ، وكانت

تعيش فى روما منذ طلاقها من زوجها ، فلما ماتت فى أبريل ١٢١٣ تركت ولدها فى وصاية البابوية . وكان لهذا الوضع أثره البعيد فى تاريخ مملكة أرغون أيام خايمه الأول ، لأنها اعتُبرت إقطاعية تابعة للبابوية واعتُبرت حروبها مع المسلمين حروبا صليبية ، وكان البابا إنُسِنْتْ الثالث هو الذى تولى بنفسه رعاية شؤون الصبي خايمه حتى بلغ سن الرشد وتولى الملك ، وقد ندب البابا للوصاية على العرش رجلا من رجاله هو پدرو دِ بِنِڤنْتُو دَيّان كنيسة سنتا ماريا دِ أكيرو ، فأقبل واستقر فى لاردة وعقد هدنة مع المسلمين ، وأناب عنه فى الحكم والوصاية على خايمه سانشو دوقَ پروڤنسة وكان ابناً لرامون بيرنجير الرابع.

وفى سنة ١٢١٨/٦١٥ بلغ خايمه سن الرشد ولقب بالأول ، وبدأ فى نفس السنة كفاحه الطويل ضد المسلمين ، فسار نحو بنِشكُلَه Péniscola واستغلها ، وكانت تلك أول ما سقط فى يده من توابع بلنسية . ثم حفزه نفر من تجار برشلونة ومندوب البابا ونفر من أشراف مملكته على غزو جزيرة ميورقة ، فجرد حملة من مائة فارس وألف راجل ، واعتبرت الحملة حملةً صليبية ، وتمكن من الاستيلاء على الجزيرة بأيسر جهد فى ١٤ صفر ٦٢١/ أول يناير ١٢٣٠ ، والمراجع النصرانية تذهب إلى أن الغزو تم قبل ذلك بشهر أى فى منتصف المحرم/٣١ ديسمبر من نفس السنة . وعلى سهولة هذا الفتح فقد رفع من شأن خايمه — أو « جاقم » كما يسميه ابن الأبار — إلى مصاف كبار الفاتحين ، وأصبح يلقب بالكونكيستادور أى الفاتح . ولم تسقط الجزيرة كلها بسقوط قاعدتها ، إذ استمرت الحرب هناك سنوات تم خلالها القضاء على كل مقاومة .

وعقب ذلك مباشرة اتجهت أنظار خايمه نحو بلنسية ، وقد حرضه على هذا أوجو فولكالكير Hugo Folcalquer رئيس فرسان الداوية فى مملكة أرغون ونفر من الأشراف ، فسار نحو منطقة بلنسية فى سنة ١٢٣٢ (٦٣٠ —

٦٣١ هـ) : واستولى على آره Ares ثم مُرِلَّه Morella فى نفس السنة :

وفى شوال ٦٣٠/يوليو ١٢٣٣ استولى على بُريانة Burriana بعد حصار بالبر والبحر ، ثم أعاد إخضاع بنشكله وبُولْبِش Polpes وقسطليون Castellón وبريول Borriol وكويڤاس Cuevas وبين رومان Vinromá وألقلوطن Alcaluten وبيلافورنس Vilafornés ووصلت غارته إلى ضفاف نهر شقر وناحية البلاط Albalate . وفى سنة ٦٣٣/١٢٣٤ استولى على مُصارة بلنسية ، وفى العام التالى حاول الاستيلاء على قُلبارة Cullera دون نجاح ولكنه ملك حصنين يشرفان على بقاع بلنسية هما مُنْكاده Montcada ومُشروس Museros .

وبعد ذلك بثلاث سنوات ، أى فى سنة ١٢٣٨ (٦٣٦ – ٦٣٧) ضرب معسكره بين بلنسية وقرية مجاورة لها تسمى جراو Grau وعول على ألا يريم حتى يستولى على البلد . وتدفقت إليه النجدات من شتى البلاد التابعة له ، بل أقبل لعونه مقاتلون من تربونة ونفر من فرسان قشتالة .

ويغلب على الظن أن ذلك الموضع الذى ضرب الملك خايمه معسكره عنده هو جبل أنيشة أو أنيجة الذى يسميه ابن عبد المنعم الحميرى عقبة أنيشة ويسمى فى النصوص الإسبانية إلبويش el Puig وتقوم عليه قرية تحمل نفس الاسم ، وتقع هذه العقبة على ٢٠ كيلو متراً شمالى بلنسية فى الطريق إلى مربيطر التى تعرف باسم سَجُونتو Sagunto . وأحس أبوجميل زيان بالخطر الداهم ، وانتهز فرصة ابتعاد الملك خايمه عن معسكره ، فخرج فى جمع عظيم من مقاتلى بلنسية فيهم نفر من الشيوخ والفقهاء ، ودارت بين الجانبين معركة عنيفة . وقد استبسل البلنسيون فى القتال ، ولكن أعداءهم أداروا عليهم خدعة كبيرة ، إذ أقبلت طائفة منهم من بعيد حاملة راية الملك وأشاعت أنه عاد بجيش كبير ، ففت ذلك فى عضد المدافعين عن بلدهم وأيقنوا بالهزيمة وأخذ الكثيرون فى الفرار . وفى هذه الفوضى استشهد من المسلمين كثيرون من بينهم أبو الربيع

سليمان بن سالم الكلاعى ، وكان قد بلغ السبعين من عمره ، ولكنه بقى فى الميدان إلى آخر المعركة ، وظل يثبّت الناس ويدعو الفارين إلى العودة حتى قتل ، وكان ذلك فى ٢٠ ذى الحجة ٦٣٤/١٣ أغسطس ١٢٣٧ . وكانت تلك آخر محاولة كبيرة قام بها البلنسيون لإنقاذ بلدهم .

ولم يحضر ابن الأبار هذه الواقعة ؛ إذ لو حضرها لقال ذلك ، فقد ذكرها فى « التكملة » وفى « الحلة » . وأحس أبو جميل زيان أنه لن يستطيع الثبات وحده ، فقرر إرسال سفارة إلى أبى زكريا الحفصى صاحب إفريقية (تونس) وندب لها ابن الأبار ، وتلك هى السفارة التى أنشد فيها ابن الأبار قصيدته المشهورة :

أدركْ بخيلك ، خيل الله ، أندلساً إن السبيل إلى منجاتها درسا

وهى قصيدة طويلة فيها من التكلف ما يكاد يصرف قارئها عن الحال المحزن الذى قيلت فيه ، ولكنها على أى حال حققت الهدف من إنشادها ، فقد تحمس أبو زكريا وأرسل إلى بلنسية بضع سفن مشحونة بالمال والعتاد والزاد .

وكان خايمه قد ضيق الحصار حول بلنسية فى أثناء ذلك ، ووصل الأسطول الحفصى وحاول النزول فى موضع جراو قرب بلنسية فى ٤ محرم ٦٣٦/ ١٨ أغسطس ١٢٣٨ ، ولكنه وجد الموضع حافلا بجند النصارى فأرسل قائد الحملة أبو يحيى بن أبى حفص عمر الهنتاتى المعروف بالشهيد إلى أبى زكريا الحفصى يعلمه بالحال واتجه هو بالسفن إلى دانية وأرسى فيها فى ١٢ محرم ٦٣٦/ ٢٦ أغسطس ١٢٣٨ وترك لأهلها الطعام والسلاح اللذين كان يحملهما ، أما المال فقد عاد به إذ لم يجد من يتسلمه منه . ومن الغريب أن أبا بكر عزيز بن أبى مروان بن خطاب الذى سيترجم له ابن الأبار فى الحلة بايع لنفسه على مرسية فى نفس اليوم الذى وصل فيه الأسطول الحفصى إلى جراو ولقب نفسه بضياء السنة وعلى مسافة قصيرة منه بلد إسلامى يحتضر ! ولو فى هذا الرجل ومن حوله

من السنة أثارة خف لنجدة إخوانه ، ولكن إلى هذه الحال من سخف العقول وصل الناس فى تلك الأيام ، والدول لاتسقط عن قلة عدد وإنما عن سقوط الهمم وضياع النخوة وموت الإحساس . ومما يستلفت النظر ويدعو إلى الاعتبار أن لسان الدين بن الخطيب سخر من ابن خطاب هذا وقال إنه قبل الإمرة بمرسية « مع قطْع صبيّ المهد ورضيع الثدى بسوء عقبى من يتحمل ذلك يومئذ» ، وابن الخطيب ذاته سيزج بنفسه مهالك ومعاطب ومطامع يقطع نفس « صبى المهد ورضيع الثدى » بسوء عقباها ، ومع هذا لم يذكر ولم يتعظ ، وانتهى بنفسه إلى مصرع شبيه بمصرع ابن خطاب.

ويذهب ابن الخطيب إلى أن الحصار طال حتى « نفدت الأقوات واستولى الجوع وضعفت القوى وأكلت الجلود والزقوق » ، والواقع أن الحصار لم يطل حتى بلغت الحال هذا المبلغ ، ولكن القتال كان ضارياً عنيفاً وخاصة بعد معركة أنيشة ، ثم إن فرقاً من فرسان أرغون كانت لا تكف عن الغارة على البلد وانتساف ما حوله من معسكرها عند عقبة أنيشة ، وكانت أعدادهم تتزايد يوماً بعد يوم حتى أصبح معسكر ملك أرغون كأنه مدينة كبيرة خف إليها التجار من كل صوب ، وقد أتى بعضهم من مونبلييه ، وأخيراً استقر رأى أبى جميل زيان على التسليم ، وتم ذلك فى ١٧ صفر ٦٣٦/ سبتمبر ١٢٣٨ ، وقد اشترك ابن الأبار فى المفاوضات وكتب بنفسه العقد كما حكى فى « الحلة » ؛ وقد نص الاتفاق على أن يغادر من أراد من المسلمين بلده خلال ٢٠ يوما بأمواله وأسبابه ، « وابتدئ بضعفة الناس ، فسُيِّروا فى البحر إلى نواحى دانية ، واتصل انتقال سائرهم براً وبحراً ، وصبيحة يوم الجمعة ١٧ من صفر المذكور كان خروج أبى جميل بأهله من القصر فى طائفة يسيرة أقامت معه ، وعند ذلك استولى عليها الروم » .

استقر أبو جُميل زيان وابن الأبار معه فى دانية ، ويبدو أن ابن الأبار حاول أن يجد عملا عند بعض الرؤساء فيما بقى من مدن الأندلس ، فقد أورد

المقرى فى « أزهار الرياض » رسائل منه إلى بعضهم (٣/٢١٦–٢٢١) ، ولكنه لم يوفق ، فعول على مفارقة الأندلس جملة إلى إفريقية والتماس الأمان بلد ذاع له فيه صيت منذ زيارته الأولى ، وقد فعل فعله أبو المطرف بن عميرة وأبو الحجاج يوسف البياسى وغيرهم كثيرون ، ولم يكن الأندلس قد ضاع كله ولا انقطع منه الرجاء ، ولكن هكذا كان تصرف الكثير من علمائه وقادة السياسة والرأى فيه : نجوا بأنفسهم مخلفين الصغار والضعفاء وأهل الأرياف والمدن ، وهناك فى ظلال الأمن والدعة طفقوا يكتبون مراثى نثرية أو شعرية يعبرون فيها عن أسف متكلف، وليس هناك أبعد عن الصدق من هذه المكاتبات المنظومة أو المنثورة بين ابن الأبار وأبى المطرف بن عميرة فى رثاء بلنسية .

أما أبو جميل زيان فقد تمهد له الأمر فى دانية ، ولكن الملك خايمه اتجه إلى الجنوب فاستولى على كَنْدِية Gandía فخاف أبو جُميل وأرسل إليه يعرض تسليم لَقَنْتْ Alicante فى مقابل تنازل الملك عن جزيرة ميورقة ، فرفض خايمه لأن الاتفاق كان قد تم بينه وبين ملك قشتالة على أن تكون بلنسية آخر ما يستولى عليه من بلاد المسلمين ، والباقى من نصيب قشتالة . ثم حاصر شاطبة حصاراً قصيراً وأقلع عنها عائداً إلى مونبلييه .

وأقام أبو جميل رئيساً لدانية ، وما زال يدبر وهو فيها لرئيس مرسية أبى بكر عُزيز بن أبى مروان بن خطاب ، حتى ثار به الناس وبايعوا لأبى جميل ، ثم قُتل ابن خطاب فى رمضان سنة ٦٣٦/أبريل ١٢٣٩ فأصبح أبو جميل رئيس دانية ومرسية ، وظل فى الأولى حتى سار فارس ألمانى اسمه Carroz ممن كانوا يعملون فى خدمة الملك خايمه فانتزعها منه سنة ٦٤٢/١٢٤٤ . وأما مرسية فقد ظل أميراً عليها داعياً للخليفة العباسى ، ثم دخل فى طاعة محمد بن يوسف ابن نصر بن الأحمر ، وظل على هذا وقتاً قصيراً ، ثم بدا لابن الأحمر فعزله عنها ، فتركها ومضى إلى تونس حيث عاش بقية عمره .

أما هذا الاتفاق الذى أشرنا إليه بين ملكى أرغون وقشتالة فقد تم فى بليدة تسمى المِرسَى Almirza من أحواز بلنسية فى ٢٥ مايو ١٢٤٤ (ذى القعدة ٦٤١) وهو يدل على أن الاستيلاء على ما بقى من قواعد المسلمين فى شرق الجزيرة لم يعد حربا بل تقسيما ، هذه لهذا وتلك لذاك ، وأدهى من ذلك أن هذا الاتفاق تم بينهما توثيقاً لمصاهرة عقداها ، فقد اتفقا على أن تتزوج الأميرة ڤيولانتِ ابنة خايمه الأمير ألفونسو بن فرناندو الثالث ملك قشتالة ، ونص الاتفاق على أن تكون شاطبة جزءاً من شوار العروس ، ولم تكن شاطبة قد سقطت بعد ! وبعد مفاوضات طويلة كادت تؤدى إلى الحرب استقر الملكان على اتفاقية المرسى هذه ، وقد نصت على أن يعطى خايمه لصهره بيانة Villena وساش Sax وكاوديتِ Caudete وبُغَرَّس Bugarras وأن يتنازل ملك قشتالة عن إنغيرة Enguera وموشنت Mogente ، وأن تكون بلنسية وتوابعها من نصيب أرغون ، ومرسية وتوابعها وما يليها جنوباً من نصيب قشتالة ، ووضع حد فاصل بين الناحيتين ، فتبعت مرسية بلادُ المنزل Almansa وسَرَذول Sarazul وحوض نهر كبرينول Cabrinol ، وتبعت بلنسية بلاد قسطلة Castalla وأبْيار Biar وريِّو Relleu وسشونة Saxona والأرش Alarch وفِنِسْترات Finestrat وطُرَّش Torres وبولوب Polop ومواله Muela ، وكلها مواضع صغيرة بين حوضى نهرى شقر Jucar وشقورة Segura .

وقد انتقد مؤرخو قطلونية ذلك الاتفاق وقالوا إنه أخرج مملكة أرغون من ميدان الحرب مع المسلمين وأقفل فى وجهها سبيل التوسع جنوباً على حسابهم ، ولكن خايمه الأول كانت أمامه مشاكل كثيرة فى بلاده المترامية ، ولم يكن يستطيع المضى فى حرب المسلمين إلى أكثر مما مضى ، ثم إن مرسية وما يليها جنوباً كان أمرها استقر بعض الشىء بعد قيام أبى جُميل زيان بالأمر فيها وبيعته للخليفة العباسى ودخوله فى طاعة محمد بن يوسف بن الأحمر صاحب غرناطة ، وكان مركز هذا قد استتب وأصبح قادرا على مواصلة

الحرب للدفاع عن كيانه ، وكان ابن الأحمر إلى جانب ذلك تابعاً لملوك قشتالة ، فلم تكن مواصلة الحرب معه بالأمر اليسير ، ومهما يكن من الأمر فقد ختم خايمه أعماله فى هذه الناحية بالاستيلاء على شاطبة فى أبريل ١٢٤٨ (محرم ٦٢٦) ليقدمها فى شوار بنته بعد ذلك .

* * *

ابن الأبار فى إفريقية

غادر ابن الأبار إذن بلاد الأندلس قاصداً بلاد الحفصيين ، ويذهب المغربى إلى أنه ذهب أولا إلى بجاية « ودرس بها وأقرأ وروى وسمع وصنف وألف ، ثم استدعاه المستنصر الحفصى ليكتب له » . ويبدو أن إقامته ببجاية كانت قصيرة ، لأنه يذكر فى ترجمة نذير بن وهب بن لُب أن هذا الأخير توفى فى العشر الأواسط من شعبان ٦٣٦ / مارس ١٢٨٩ «بعد ستة أشهر من الحادثة على بلنسية ، وأنا حينئذ بحضرة تونس فى توجهى إليها » أى أنه أقام ببجاية ثلاثة أشهر أو أربعة انتقل بعدها إلى تونس ليكون كاتب المستنصر الحفصى .

وتذهب المراجع إلى أنه تولى كتابة الإنشاء والعلامة ، و « العلامة » هى عبارة التوقيع التى تضاف إلى المكاتبات السلطانية وترفع إلى السلطان ليضع عليها خاتمه ، ويقال إن ابن الأبار كتب العلامة فترة من الزمن وكان يكتبها بخطه المغربى ، ولكن السلطان أبا زكريا يحيى رغب فى أن تكون بالخط المشرقى ، ولهذا أمر بأن يكتفى ابن الأبار بإنشاء المكاتبات ويدع العلامة لأحمد بن إبراهيم الغسانى ، وكان يحسن الكتابة بالخط المشرقى ، فغضب ابن الأبار لذلك واستمر يكتب العلامة على ما ينشئه من رسائل ، فعوتب فى ذلك وروجع ، فاستشاط غضبا ورمى القلم من يده وأنشد :

اطلب العز فى لظّى وذر الذل (م) ولو فى جنـــان الخلود

وحُمل الخبر إلى السلطان ، فصرفه عن العمل وأمره بلزوم بيته .

هكذا نجد الخبر فى كل مراجعنا على طريقتها فى تعليل الحوادث

تعليلات. سطحية ظاهرة التكلف ، والحقيقة أن ما جرى لابن الأبار كان حلقة من حلقات الصراع بين الأندلسيين المهاجرين وشيوخ تونس من موحدين وغير موحدين ، بل حلقة من صراع هؤلاء المهاجرين الأندلسيين مع شيوخ كل قطر نزلوه وعلمائه . فقد كان الأندلسيون يحسون أنهم أعلم من غيرهم وأقدر ، ومن ثم فهم أولى بالتكريم وبالمناصب . ثم إنهم كانوا يتوقعون ممن نزلوا عليهم مراعاة وعطفاً عليهم مواساةً لهم فيما أصابهم فى بلادهم .. أما أهل المغرب وتونس ومصر وبقية أهل المشرق فكانوا يرون أن أولئك المهاجرين أولى بأن يتواضعوا ويقنعوا بما وجدوا فى أوطانهم الجديدة ، ثم لماذا يطلبون أن يمتازوا على غيرهم ما داموا قد أصبحوا مواطنين فى البلاد التى نزلوها ؟ هذا كان مدار الخلاف الحقيقى ، نلمحه فى صور شتى فى تراجم الأندلسيين الذين هاجروا إلى بلاد إسلامية بعد ضياع بلادهم ، وينذر أن تقرأ لواحد من أولئك الأندلسيين شيئاً إلا لمسنا فيه المرارة التى نشأت عن خيبة الرجاء فى المهجر ، وأمثلة ذلك كثيرة عند على ابن سعيد وأبى الخطاب بن دحية وأثير الدين أبى حيان وأبى بكر الطرطوشى وابن خلدون والمقرى وغيرهم .

ولكن الخلاف بين الأندلسيين والبلديين كان أوسع مدى وأبعد أثرا فى تونس عاصمة الحفصيين ، فقد كان عدد من نزلها من الأندلسيين عظيما ، وكان الكثيرون منهم سلائل أسر عريقة لها فى تاريخ الأندلس السياسى والعلمى أثر بعيد ، وقد ذكرنا أبا المطرف بن عميرة وأبا الحجاج البيّاسى ويضيف ابن خلدون أبا مروان أحمد الباجى من أعقاب أبى الوليد وأبا عمر ابن الجد من أعقاب أبى بكر بن الجد وغيرهم . وكان هؤلاء يتجمعون عصبة واحدة على العلماء من أهل البلد ومشايخ الموحدين يحاولون الاستئثار من دونهم بالوظائف الكبرى ومراتب الشرف ، وفى أيام أبى زكريا يحيى الحفصى تجمع هؤلاء حول عمه أبى القاسم بن أبى زيد وكان رجلا طامحا إلى السلطان لايخفى مطامعه ، وكان له مع أبى زكريا أخبار ووقائع ، ومن

ثم فقد كان الشك يحوم حول الأندلسيين ، وكانت الوقيعة فيهم تجد أذناً صاغية من هذه الناحية .

وقد حرص معظم من ذكرنا من مهاجرة الأندلسيين على أن يبتعدوا عن السياسة ما أمكن ، وانصرفوا إلى العلم أو غيره من المشاغل التى لا يثير الاجتهاد فيها مخاوف أولى السلطان ، ولكن ابن الأبار لم يستطع سلوك هذا السبيل ، فقد كان بطبعه رجلا طموحاً إلى السلطان والجاه وعرض الدنيا ، ولو رجلٌ غيره حوى فى صدره من العلم ما حوى لحمد الله على الأمان الذى صار إليه والكرامة التى لقيها وانصرف إلى التأليف والإقراء ، ولكن سوء طالعه غلب عليه ، فقد كان إلى طموحه وطمعه سريع الغضب حديد اللسان تصدر عنه المساءة وكأنه لايشعر ، ومن أمثلة ذلك أنه عند ما وصل إلى إفريقية نزل فى ميناء بنزرت ، وكتب إلى أبى عبد الله بن أبى الحسين وزير أبى زكريا الحفصى ينبئه بمجيئه ويمت إليه بصلة صداقة قديمة بدأت عند ما زار ابن الأبار تونس فى المرة الأولى ، وكان يحسب أن والد الوزير متوفى فنعته فى الخطاب بالمرحوم ، فنبهوه إلى أنه فى قيد الحياة ما يزال ، فضحك وقال : « إن أباً لا تُعرف حياتُه من موته لأبٌ خامل » ، ولم تعدم هذه الكلمة من يحملها إلى الوزير — طبعاً — فآلمته ، وتحدث إلى السلطان فى أن يستقر ابن الأبار فى بجاية ، وفعلا ذهب ابن الأبار إليها وأمضى فيها بضعة أشهر ثم استقدمه أبو زكريا إلى تونس وألحقه بخدمته .

ولم يقلع ابن الأبار عما جبل عليه من إيذاء الناس بلسانه ، ويبدو أنه كان ممن ينبزون الآخرين بالكلام القارص أو النقد المهين فى خفية وتستر حاسبين أن أمرهم لا يفتضح ، وأمرهم فى الحقيقة لا يخفى على أحد ، ومن هنا لقبه خصومه بالفأر ، ويغلب على الظن أن وجهه كان صغيراً نحيلا ومن هنا قال فيه أحد خصومه وهو أبو الحسن على بن شلبون المعافرى البلنسى :

لا تعجبوا لمضرةٍ نالت جمي ـع الناس صادرةً من الأبار
أوَ ليس فأراً خِلقةً وخليقةً ؟ والفأرُ مجبول على الإضرار

فأجاب ابن الأبار سريعاً :

قل لابن شلبونٍ مقالَ تنزُّهٍ : غيرى بجاريك الهجاءَ ، فجارِ

إنا اقتسمنا خطتينا بيننا فحملتُ بَرَّةَ واحتملت ، فجارِ !

ثم إن ابن الأبار كان شديد الاعتداد بنفسه دائم الفخر بالأندلس وتفضيله على إفريقية ، قال ابن خلدون : « وكان فى ابن الأبار أنفة وبأو وضيق خلق » ، ومن هنا زهد فيه أبو زكريا الحفصى وأراد أن يبعده عن ديوانه ، وأيده فى ذلك أبو الحسين أحمد بن إبراهيم الغسانى ، فتعلل السلطان بحكاية خط العلامة هذه حتى لا يراه ، إذ كان صاحب العلامة يعرض الكتب عليه ، ولكن ابن الأبار لم يفهم ، وأصر واستمسك ، ثم ذهب به الغضب إلى التمثل بالبيت الذى يفضل فيه العز فى اللظى على الذل فى جنان الخلود ، ولم يكن هذا منه إلا تشدقاً بألفاظ ، فلوكان فى الحقيقة ممن يفضلون العز فى اللظى لأقام فى الأندلس ، فهناك فعلا كان اللظى فى الحروب التى لا تسكن وهناك أيضا كان العز فى ظلال السيوف .

وليت ابن الأبار استمسك بهذه العزة بعد أن أبعِد وألزِم دارَه ! بل سعى سعياً حثيثاً فى العودة إلى الذل فى جنان السلطان ، بل أنفق الوقت فى رسالة استعطاف طالت حتى صارت كتابا هو « إعتاب الكتّاب » تذلل فى فاتحته فأسرف فى التذلل ، ثم أخذ يقص حكايات كتّاب سبق إليهم غضب السلاطين ثم حلت بهم نعمة الرضا فأعتبوهم . وقد استشفع ابن الأبار بولى العهد أبى يحيى زكريا ، وكان فى أيام أبيه شابا مستضعفاً دائم الخوف من إخوته محمد وإبراهيم وعمر وأبى بكر (وكلهم ولىَ بعده) ومن أبناء عمه محمد بن عبد الواحد المعروف باللحيانى لعظم لحيته ، ولهذا كان حريصا على أن يكسب لنفسه أنصاراً يشدون أزره ، فسره أن يستشفع به ابن الأبار فكلم أباه فى أمره فأعاده إلى الرضا .

وشاءت الأقدار أن يموت أبو يحيى زكريا هذا قبل موت أبيه بسنة واحدة (٦٤٦ / ١٢٤٨ ـ ٤٩) وأن يصير الأمر بعد ذلك إلى أبى عبد الله

محمد ثانى أولاد أبى زكريا ، وهو الذى عرف بالمستنصر أو المنتصر ، وظل ابن الأبار فى عمله ولكنه استمر على دأبه فى تنقص الناس وخاصة أبى الحسن أحمد بن إبراهيم الغسانى ، وكان قد أصبح وزير المستنصر ، فاجتهد هذا حتى أصدر السلطان أمره بإبعاد ابن الأبار إلى بجاية ؛ فذهب إليها وانصرف إلى التأليف فترة من الزمن أنجز فيها كتاب « التكملة » الذى كان قد بدأه فى الأندلس ؛ وهذه الإقامة فى بجاية هى التى أتاحت للغبرينى فرصة الترجمة لابن الأبار ضمن من حل من العلماء ببجاية ، وهى أحسن وأوفى ترجمة له بين أيدينا .

وفى هذه الفترة أيضا نعتقد أنه أتم كتاب « الحلة السيراء » ، ومن المقطوع به أنه بدأ يكتبه فى تونس عقب استقراره فيها ، فهو فى فاتحته يتحدث عن شعر للسلطان أبى زكريا يحيى وولى عهده أبى يحيى ، وكانا يقرضان الأبيات منه بين الحين والحين ، وقد صنفه ابن الأبار تمجيداً لشاعرية السلطان وابنه وتدليلا على أن قول الشعر من خصال كبار الخلفاء والسلاطين والأمراء ، فهذا الكتاب ، مثل « إعتاب الكتاب » ، كتاب مناسبة ، ولكنها كانت مناسبة سعيدة ، لأنها أتاحت الفرصة لهذا الحافظ الواعى ليسجل شيئاً من محفوظه الغزير . وفى الكتاب إشارة إلى أنه كان ما زال مشتغلا بكتابته سنة ١٢٤٨/٦٤٦ — ٤٩ وهى السنة التى توفى فيها ولى العهد أبو يحيى ، وربما يكون قد أتمه قبل وفاة أبى زكريا ، ولكن العجلة التى تبدو فى الباب الأخير من الكتاب تدل على أنه أتمه بعد هذه السنة بمدة قصيرة ، وفى الغالب أيام إقامته الثانية فى بجاية .

ولا ندرى كيف وفق ابن الأبار إلى رضى المستنصر ، ويبدو أن ذلك كان نتيجة لرسائل مديح كتبها من بجاية يشيد بالمستنصر وأعماله ، وقد أورد المقرى فى « أزهار الرياض » رسالة لابن الأبار بمناسبة تمام حفر القنـــاة المؤدية إلى الحدائق التى أنشأها أبو زكريا الحفصى خارج تونس ، والرسالة

تدل على أن ابن الأبار كتبها من بعيد وأرسلها إلى السلطان . ولم تكن حال ابن الأبار فى بجاية سيئة ، فقد لقيه هناك على بن سعيد المغربى ؛ وقال بعد أن أشار إلى سينيته وتوفيقه فيها وإعجاب الناس بها : « إلا أن أخلاقه لم تعنه على الوفاء بأسباب الخدمة ، فقلصت عند تلك النعمة ، وأخّر عن تلك العناية ، وارتحل إلى بجاية ، وهو الآن بها عاطل من الرتب ، خال من حلى الأدب ، مشتغل بالتصنيف فى فنونه ، متنفّل منه بواجبه ومسنونه ، ولى معه مجالسات آنق من الشباب ، وأبهج من الروض عند نزول السحاب . . . » (القدح المعلى ، برواية المقرى ، ٤/٢٨٢)

وعاد ابن الأبار من بجاية إلى تونس ، ومن حسن الحظ أنه أنهى هناك كتابيه الرئيسيين « التكملة » و « الحلة » ، والغالب أنه ترك نسخاً من هذا وذاك هناك ، فنجا الكتابان من الدمار . وكان حريا بابن الأبار بعد ذلك أن يلين خلقه ويضبط لسانه ويخفف من دعواه ، ولكنه مضى على سابق عهده من الكبرياء وحدة اللسان ، وربما كانت هذه دعوى من خصومه الكثيرين وخاصة أحمد بن إبراهيم الغسانى وزير المستنصر الأثير عنده ، ولم يكن الغسانى ليطمئن له جنب وابن الأبار قريب من السلطان يستطيع الوصول إليه إذا أراد ، وكان المستنصر رجلا كثير المخاوف يتوقع الشر من كل ناحية إذ أن أعداءه والمدبرين عليه كانوا كثيرين ، وكان ابن الأبار قبل ذلك من أتباع أخيه المتوفى ، فلم يكن هناك أيسر على الغسانى من اتهام ابن الأبار بالتدبير على الدولة ، فيحل بذلك دمه للسلطان ويفرغ منه بأهون سبيل .

نقول هذا لأن عقوبة القتل التى أنزلها المستنصر بابن الأبار لا يمكن أن تعلل بما يقال من أنه سمع السلطان مرة يسأل عن مولد ولده أبى زكريا يحيى الذى تولى السلطة بعده وتلقب بالواثق ، فجاء ابن الأبار فى اليوم التالى برقعة فيها تاريخ الولادة وطالعها ، ويضيف بعض مؤرخينا أن هذا

الطالع كان نحساً ، فاستشاط السلطان غضباً من فضوله وتطفله ، وكان ذلك سبب حتفه ؛ نقول إن ذلك كله لا يفسر لنا غضب المستنصر على ابن الأبار غضبا يؤدى به إلى قتله ثم إحراق شلوه وكتبه ، فهذا التصرف لا يصدر عن غضب بل عن خوف ، وأصحاب السلطان فى تلك العصور لم يكونوا يقتلون إلا لخوف على أنفسهم وعروشهم ، أما ما عدا ذلك فيكفى فيه الإبعاد أو السجن أو المصادرة وما إلى ذلك .

ولهذا فلا بد أن التهمة التى دبرت لابن الأبار كانت تهديد السلطان أو الاشتراك مع نفر فى ذلك ، لأننا حتى لو فرضنا أن ابن الأبار قال بيت الهجاء الذى تنسبه إليه المراجع ، فإن ذلك لا يبرر الحقد الذى ظهر من المستنصر . ولا بد كذلك أن السعاية به بدأت منذ عودته من بجاية إلى تونس ، فقد كان السلطان لا يطيق النظر إليه ، فكان يستفتيه فيما يريد من بعيد ، فإذا دخل عليه لم يكلمه أو يلتفت إليه ، وكان ابن الأبار « يشكو من ذلك ويتألم وينعى على الزمان سوء حظه :

علتْ سِنِّى وقدرى فى انخفاضٍ وحُكم الرب فى المربوب راض
إلى كم أسخط الأقدار حتى كأنى لم أكن يوماً براض »

ثم تجىء النهاية إثر حادثة مولد ولى العهد وطالعه التى ذكرناها ، ويذهب ابن خلدون بعد ذكرها إلى أن وشايات الحساد أوغرت صدر السلطان عليه وأوهمته أنه يتوقع المكروه للدولة وتتهمه بالنظر فى النجوم ، فقُبض عليه وقام الكاتب أحمد بن إبراهيم الغسانى بالبحث فى داره وكتبه ودفاتره ، فعثر فيها على بيت شعر يقول :

طغى بتونس خَلْفٌ سموه ظلماً خليفة

وعثر عنده أيضا على كتاب فى التاريخ فيه ما يسىء إلى السلطان ، فأمر بضربه بالسياط وقتله وإحراق مؤلفاته ، فقتل ضرباً بالرماح صبيحة

الثلاثاء ٢١ من المحرم سنة ٦٥٨ وأحرق شلوه ، وأخذت مجلدات كتبه وأوراق سماعه ودواوينه فأحرقت معه ، وكانت نحواً من خمسة وأربعين تأليفاً (تاريخ الدولتين للزركشى ، ص ٢٧)

والحق أن الإنسان ليدهش من قسوة ذلك العقاب الذى أنزل بابن الأبار ، فمثل هذه العقوبة ما كانت تنزل إلا بأعداء السلاطن ذوى الخطر ، أو الذين ناوأوهم وحاربوهم وكادوا يقضون عليهم ، ولا نتصور مهما ذهبنا مع الخيال أن ابن الأبار بلغ هذا المبلغ فى كراهة المستنصر والتدبير عليه ، ولكن الذى لا شك فيه أن الوشاية فى حقه صورته فى تلك الصورة ، فكانت النتيجة هلاكه على أبشع هيئة نتصورها ، وهذه واحدة من جرائم أولئك السلاطين ووزرائهم ممن حملوا فى رقابهم من أوزار المساكين ودماء الضحايا ما يصمهم إلى الأبد فى حساب الأخلاق وحساب التاريخ .

عاش ابن الأبار ثلاثا وستين سنة هجرية ، اثنتان وأربعون منها فى الأندلس والباقى فى المغرب ، ولم يسعد فى هذا ولا ذلك ، فأما فى الأندلس فقد عاش مروع السرب يحوم فوقه شبح الموت فى كل حين ، وكتب لرجال لولا سوء الزمان لما كان لهم إلى الإمارة سبيل ، ومدح غيرهم ممن لا يستحقون مجرد الذكر فضلا عن المديح ، ثم فقد وطنه وخرج بما حملت يداه إلى المغرب حيث تلقفه الأعداء وأعانهم على نفسه بسوء خلقه وتطلعه إلى الوظائف والجاه ، فلم يسعد فى وطنه الحديد ولا هدأ باله ، وانتهى أمره إلى هذه النهاية الفاجعة ، ولا عجب أن يلقبه بعض المؤرخين بالشهيد ، وهذه الشهادة لا تحق له لموته مظلوماً فحسب ، بل لأن حياته كلها كانت استشهاداً طويلا على يد الأيام .

* * *

مؤلفات ابن الأبار

ألف ابن الأبار كتبا كثيرة ، أحصى معظمها بروكلمان والمرحوم عبد العزيز عبد المجيد فى كتابه عن ابن الأبار والأستاذ إبراهيم الإبيارى فى

مقدمته للمقتضب من تحفة القادم والدكتور صالح الأشتر فى مقدمة تحقيقه لإعتاب الكتّاب ، وفى ثبت الكتب الوارد فى آخر تحقيقنا هذا ذكر كتب أخرى لابن الأبار ، وله رسائل وأشعار كثيرة أورد الكثير منها من أرخوا له وخاصة المقرى فى « نفح الطيب » و « أزهار الرياض » والغبرينى فى « عنوان الدراية » .

والناظر فى أسماء كتبه التى ضاعت — وعددها ٣٩ — وكتبه التى وصلت إلينا — وعددها ستة — يلاحظ أنها فى ثلاثة فنون : الحديث والأدب والتاريخ . فأما كتبه فى الحديث فلم يصل إلينا منها شىء يعيننا على تقديرها قدرها الصحيح بين كتب هذا الفن ، وربما كان أهمها هو « المأخذ الصالح فى حديث معاوية بن صالح » ، فقد كان معاوية هذا من أوائل فقهاء الأندلس وقضاتها ، وقد ذكره ابن سعد فى طبقاته وأثنى عليه ومن ثم فإن أحاديثه تعتبر من العوالى ، وطالما تأسف من جاء بعده من الأندلسيين على ضياع أحاديثه وعلمه .

وأما كتبه فى الأدب فلم يبق منها إلا مقتضب تحفة القادم الذى عمله البلفيقى ، وهو مختصر سيئ الصنع ، استغنى البلفيقى فيه عن معظم النثر ولم يبق إلا هيكلا جافاً يتكون من أسماء وبضعة أشعار ، وهذه لا تعين على تقدير ابن الأبار بين أصحاب كتب الأدب .

أما ميدان ابن الأبار الحقيقى فكان التاريخ والتراجم بصورة خاصة ، وكتبه الأربعة الباقية فى هذا الفن تشهد بملكة عظيمة فى هذا الميدان ، ولا تتجلى هذه الملكة فى كتاب كما تتجلى فى « الحلة السيراء » وهو غرة كتبه دون جدال ، ولابن الأبار فيه لمحات وإشارات واستدراكات تدل على أنه كان مؤرخاً حقاً عارفاً بتاريخ الإسلام حافظاً له قارئاً لكتبه ، وهو يستدرك فيه على نفر من أئمة المؤرخين أخطاء لا يتنبه لها إلا عالم متمكن ذو ملكة واعية .

وقبل أن نفرغ لكتاب الحلة نقف وقفة قصيرة عند كتابي « التكملة لكتاب الصلة » و « المعجم فى أصحاب أبى على الصدفى » .

واضح أن « المعجم » كتب قبل « التكملة » ، كتبه ابن الأبار بعد أن نضج تكوينه العلمى ، ونظن أن ترتيبه الزمنى بين مؤلفاته يجىء بعد « معدن اللجين فى مراثى الحسن » ، فقد أشار إلى هذا الكتاب فى كتبه التالية ، وموضوع « معدن اللجين » — كما يدل عليه عنوانه — من تلك الموضوعات التى تستهوى أفئدة الشباب بسبب غلبة العاطفة عليهم ، وقد كان ابن الأبار طالبياً ، ولكنه لم يكن شيعياً ، فإن الطالبي هو الذى يميل بعواطفه إلى أهل البيت ويأسى لما أصاب الكثيرين منهم أسى عاطفياً ولا يتعدى ذلك ، ومعظم كبار مؤرخينا على هذا الاعتبار طالبيون ، وأما الشيعى فهو الذى يتبع مذهب الشيعة ويميل عن السنة ، وقد ذهب المقرى إلى أن كتاب « در السَّمط فى خبر السِّبط » تشم منه رائحة التشيع ، وقد بالغ فى هذا الوصف ولا شك ، فإن الكتاب بين أيدينا وليس فيه إلا هذه العاطفية البريئة التى نجدها عند المقريزى مثلا .

وكتاب « المعجم فى أصحاب أبى على الصدفى » كتاب فريد فى نوعه من بين ما وصل إلينا من التراث الأندلسى ، لا لأنه لم يؤلَّف مثله ، بل لأنه أكمل كتاب أندلسى من هذا النوع وصل إلى أيدينا . فقد ألف القاضى عياض كتاباً فى شيوخ أستاذه أبى على الصدفى هذا ، فأراد ابن الأبار أن يكمل العمل بتأليف كتاب فى أصحاب أبى على ، أى تلاميذه ومعاصريه ومن تبادل معهم العلم . ولو وجدنا كتاب عياض لاكتملت لنا مدرسة من مدارس العلم كانت فخراً للأندلس يتوسطها شيخها أبو على بن سكرة الصدفى ومن حوله شيوخه ثم معاصروه وتلاميذه ، والصدفى جدير بهذا التقدير كله ، فإنه لم يكن شيخاً واسع العلم كريم الخلق فحسب ، بل كان مجاهداً باسلاً لقى الشهادة فى معركة كُتندة على ما ذكرناه .

وابن الأبار فى « المعجم » دقيق الدقة كلها : دقيق فى رسم الأسماء وتواريخ الميلاد وتعداد الشيوخ ، ودقيق أيضاً فى المنهج الذى اتبعه ، فهو يرتب أسماء المترجَم لهم على حروف المعجم (مع بعض خلاف قليل مقصود كإيراد اسم أحمد قبل إبراهيم) ، وهو بعد أن يفرغ من حرف يحصى عدد من ذكرهم فيه ، وإذا أهمل حرفاً نبه إلى أنه لم يجد فيه « معروفاً من هؤلاء الرواة ولا مكثرا » ، أو « ليس فى هؤلاء الرواة من أول اسمه دال أو ذال ، وعدة المذكورين فى الحروف الثلاثة : الجيم والحاء والخاء ثلاثة عشر ، منهم فى التكملة تسعة رجال » . وعدد التراجم التى فى هذا المعجم ٣١٥ .

ويفهم من العبارة السابقة أن كتاب « التكملة » كتب قبل « المعجم » . والراجح — على حسب ما استبان لى — أن كتاب « التكملة » كتب على فترات ، ففيه مواد يبدو بوضوح أنها كتبت قبل سنة ٦٣٠/١٢٣٢ — ١٢٣٣ ، وأخرى كتبت بعد هذا التاريخ وقبل هجرة ابن الأبار إلى المغرب ، وثالثة كتبت وهو فى بجاية . وهذا معقول بالنسبة لكتاب كبير مثل « التكملة » . صحيح أنه يفهم من فاتحة الكتاب — كما نشرها محمد بن شنب فى « المجلة الإفريقية » (سنة ١٩١٨) ص ٣١٧ — أن الفراغ من كتاب « التكملة » كان فى أول المحرم سنة ٦٣١/١٢٣٣ — ٣٤ ولكن فى الكتاب مواد كتبت وابن الأبار فى تونس أو بجاية ، مما يدل على أن ابن الأبار فرغ من صورة أولى من الكتاب فى أول المحرم ٦٣١ ثم عاد إلى الكتاب فأكمله ووضعه فى الصورة التى وصلت إلينـــا وهو فى بجاية للمرة الثانية .

وكتاب « التكملة » استتمام لما بدأ به أبو الوليد عبد الله بن يوسف الأزدى المعروف بابن الفرضى (٣٥١ — ٤٠٣/٩٦٢ — ١٠١٢) من الترجمة لعلماء الأندلس ، وواصل العمل أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود ابن بشكوال الأنصارى (٤٩٤ — ٥٧٨/ ١١٠٠ — ١١٨٢) ثم استتم ما فاته

فى كتاب لم يصل إلينا هو كتاب « ذيل الصلة » يذكره ابن الأبار فى « المعجم » ، ثم جاء ابن الأبار فتصدى لاستكمال ما فات سابقيه ومواصلة التراجم إلى أيامه ، وواصل العمل من بعده محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصارى المراكشى المعروف بابن عبد الملك (٦٣٤ – ٧٠٣ / ١٢٣٧ – ١٣٠٣) ثم واصل هذا العمل الجليل أبو جعفر أحمد بن إبراهيم المعروف بابن الزبير (٦٢٧ – ٧٠٨ / ١٢٢٩ – ١٣٠٨) وختمه ابن الخطيب بكتابه « عائد الصلة » .

وتكمل هذه السلسلة مؤلفات أخرى فى نفس موضوع تراجم علماء الأندلس مثل « جذوة المقتبس » للحميدى و « بغية الملتمس » للضبى و « معجم شيوخ ابن العربى » لابن الأبار (لم يوجد إلى الآن) وغيرها .

وهذه الكتب كلها – فيما عدا الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى – تتبع منهجاً واحداً فى الترجمة ، فتذكر الرجل باسمه الكامل وكنيته ونسبته وبلده الذى ولد فيه أو الذى منه أصله والبلد الذى سكنه إن كان قد نزل بلداً آخر ثم شيوخه وما قرأ عليهم ، ثم تلاميذه ومن أخذ عنه ، وتختم الترجمة بتاريخ الوفاة ومكانها وتاريخ الميلاد ومكانه إذا تيسر .

وهذه فى الحقيقة ليست تراجم بالمعنى المعروف ، إنما هى سجلات بالأسماء وتواريخ الميلاد والوفاة والشيوخ ، فلا تعطى فكرة واضحة عن المترجم له إلا فيما ندر ، فليس فيها – إلا فى القليل جدا – إشارات إلى حياة الرجل وما وقع له أو صفاته وخصائصه كرجل له صفات وخصائص ، بل ليس فيها – إلا فى النادر أيضاً – تلك الطرائف والحكايات الصغيرة التى نجد نماذج منها فى « تاريخ القضاة » للخشنى أو « رياض النفوس » للمالكى أو « الإحاطة » لابن الخطيب أو سلسلة كتب الوفيات المشرقية التى بدأت بابن خلكان ، ومن ثم فإن قيمتها للتاريخ السياسى والاجتماعى للأندلس محدودة ، بل فائدتها فى التعريف بالرجال أنفسهم قليلة .

ولكنها على أى حال أكثر فائدة من المواد التى يتضمنها الكثير من كتب على بن سعيد وكتاب « الخريدة » للعماد الأصفهانى أوالكنية الكامنة لابن الخطيب ، فهذه مجموعات مختارات وليست تراجم أو مواد ذات قيمة تاريخية .

وفى هذه الحدود تتساوى كتب ابن الفرضى وابن بشكوال وابن الأبار وابن الزبير فى الدقة والإتقان ، وربما شف ابن بشكوال على صاحبيه فى تراجمه بسبب ملكته التاريخية الواضحة . وابن الأبار على هذا الاعتبار واحد من أعلام مؤرخى العلم فى الأندلس ومرجع من المراجع التى لا يستغنى عنها مؤرخ له خلال القرنين السادس والسابع الهجريين بصفة خاصة .

* * *

كتاب الحلة السيراء :

وننتهى إلى كتاب « الحلة السيراء » ، وهو دون شك أحسن كتب ابن الأبار وأعظمها فائدة ، بل هو من عيون ما ألف أهل الأندلس قاطبة ومن المراجع التى لا يستغنى عنها من يؤرخ له أو يكتب فى أى ناحية من نواحى الحياة فيه .

وقد ذهب بعض المحدثين إلى أن عنوان الكتاب الكامل : « الحلة السيراء فى شعر الأمراء » ولم نجد ما يؤيد هذا فى المخطوط ولا عند الموثوق فيهم ممن كتبوا عنه ، ولهذا جعلنا عنوان الكتاب « الحلة السيراء » فحسب ، ولو أن إكماله بعبارة « فى شعر الأمراء » معقول .

وقد قلنا فى أول هذه المقدمة إن صاحب الفضل فى اكتشاف القيمة التاريخية والأدبية لهذا الكتاب كان المستشرق دوزى ، وقد أثبتت الدراسات التالية حصافة دوزى عندما أشاد بقيمة الكتاب وخصائص صاحبه ، والكتاب الآن بين أيدى القراء يستطيع من يريد منهم أن يستبين بنفسه ما له من قيمة وما يوحى به من ثقة .

ولفظ « السِّيَرَاء » الذى استعمله ابن الأبار فى العنوان لفظ نادر الاستعمال ولكنه جميل أحسن ابن الأبار فى اختياره ، وإليك ما ورد فى « لسان العرب » فى معنى هذا اللفظ :

« . . . وثوب مُسَيَّرٌ وشْيُه مثل السُّيور ، وفى « التهذيب » : إذا كان مخططاً . وسَيَّر الثوبَ والسهمَ جعل فيه خطوطاً ، وعُقابٌ مسَيَّرة مخططة . والسِّيْراء والسِّيَرَاء ضرب من البرود ، وقيل هو ثوب مُسيَّر فيه خطوط تعمل من القز كالسيور ، وقيل برود يخالطها حرير ، قال الشمَّاخ :

فقال إزارٌ شَرْعَبِىٌّ وأربعٌ ... من السِّيَرَاء أو اواق نواجزُ

وقيل هى ثياب من ثياب اليمن والسِّيَرَاء الذهب ، وقيل الذهبُ الصافى ، الجوهرى ، والسِّيَرَاء بكسر السين وفتح الياء والمد بُرْدٌ فيه خطوط صُفر ، قال النابغة :

صفراءُ كالسِّيَرَاء أُكمِل خَلقُها ... كالغصنِ فى غُلَوائه المتأوِّد

وفى الحديث : أهدى إليه أُكَيْدِرُ دومة حلة سِيَرَاء . قال ابن الأثير : هو نوع من البرود يخالطه حرير كالسيور ، وهو فِعَلاَء من السَّير القِدِّ . قال : هكذا روى على هذه الصفة . قال ، وقال بعض المتأخرين : إنما هو على الإضافة ، واحتج بأن سيبويه قال : لم تأت فِعَلاءُ صفةً لكن اسماً ، وشرح السِّيَرَاء بالحرير الصافى ، ومعناه حلة حرير ، وفى الحديث : أعطى علياً بُرْداً سِيَرَاء وقال : اجعله خُمُراً ، وفى حديث عمر : رأى حُلَّةً سِيَرَاء تباع ، وحديثه الآخر أن أحد عماله وفد عليه وعليه حُلة مُسَيَّرة أى فيها خطوط من إبريسم كالسيور » (مادة سير ، ٦ / ٥٧) .

وإذن فالمراد بالعنوان : الحلة ذات خطوط من حرير ، وقد تكون هذه الخطوط صفراء فتشبه الذهب ، وإذا أخذنا برأى سيبويه كان المعنى ثوب حرير صاف . وهو بطبيعة الحال كناية عن مادة الكتاب وما فيه من

الشعر ، وجدير بالملاحظة أن شعر الكتاب ليس كله لأمراء ، بل فيه الكثير من شعر الوزراء والكتاب وأصحاب الجاه والعلماء .

وهذا الشعر كله جيد ، مما يدل على ملكة ابن الأبار كناقد للشعر عارف بالجيد منه وغير الجيد . ولكن أهم من الشعر فى الكتاب نثره ، فهو تراجم غاية فى الفائدة لعدد كبير من الشخصيات التاريخية فى المغرب والأندلس من القرن الهجرى الأول إلى منتصف القرن السابع مع مادة تاريخية لابأس بها عن أعلام مشارقة من أهل القرن الأول كان لهم نصيب فى فتوح المغرب والأندلس .

وفى كل هذه المواد يبدو لنا ابن الأبار مؤرخاً فحلاً واسع الاطلاع نافذ النظر صادق الحكم ، وإذا استثنينا بعض المواد الأولى التى ينسب فيها ابن الأبار شعراً إلى عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وعبد الملك بن مروان وبعض أجزاء الباب الأخير الخاص بمن لم يؤثر عنهم شعر ، تبينا أن مادة التراجم كلها متعادلة من حيث القيمة والغزارة والأصالة ، غنية بكل ما ينفع المؤرخ ، ولا أذكر أنى قرأت لغير ابن الأبار فى الأندلس شيئاً يدل على سعة العلم على هذه الصورة ، فهو متمكن غزير المادة سواء أكتب عن خلفاء بنى العباس أم خلفاء الفاطميين أم أمراء الأندلس وخلفائها أم أمراء الطوائف ومن عاصرهم . وهو ليس غزير المادة فحسب ، بل ناقد يقظ لا يمر بخطأ فى تاريخ أو اسم إلا استدرك عليه ، وتبدو منه بدوات هنا وهناك تدل على أنه كان بالفعل من أعلم الناس بتاريخ المسلمين السياسى والعلمى والأدبى .

ومن حسن الحظ أن ابن الأبار تخلى عن السجع بعد فراغه من فاتحة الكتاب ، فجاء أسلوبه قويماً رصيناً بليغاً يرتفع إلى أحسن مستويات الأساليب العربية الصافية ، وأسلوبه هنا يشبه أسلوبه فى « إعتاب الكتاب » . ومقارنة بين أسلوب الحلة وإعتاب الكتاب ونصوص الرسائل المسجوعة التى كتبها ابن الأبار وأورد المقرى شيئاً منها تعطينا دليلا على جناية السجع

على الأدب العربى ، فهذا ابن الأبار إذا كتب على سجيته دون تكلف أفصح وأبان وأفاد وأمتع ، فإذا تكلف وسجع أسفَّ وهبط وضاعت معانيه فى جهد البحث عن السجعات .

وليس هذا موضع تحليل هذا الكتاب ، فهذه دراسة طويلة جديرة بأن يفرد لها بحث خاص ، ومثل هذا الكتاب تتبين مزاياه عند الحاجة إليه والبحث فيه .

* * *

المخطوط :

ولم تُبق الأيام من « الحلة السيراء » إلا نسخة وحيدة هى هذه التى اعتمدنا عليها فى هذا العمل ، وقد وقع فى ظن بعض الباحثين أن هناك نسختين أخريين ، واحدة فى مدريد والثانية فى باريس .

وهذه النسخة الوحيدة الباقية هى المحفوظة فى مكتبة الإسكريال برقم ١٦٥٤ ، وهى نسخة جميلة مكتوبة بخط مغربى على ورق حجمه ٢٧ × ٢٠ سنتيمترا ، فى الصفحة ١٩ سطراً ، وعدد أوراقها ١٩٧ . وفى نفس المجلد ٣ ورقات أضيفت إليه خطأ من تاريخ يظن أنه لأحمد بن أبى الفياض المؤرخ الأندلسى ، والخلاف فى نسبتها شديد بين الباحثين ، انظر :

P. MELCHOR ANTUNA, *Un Fragmento Arábigo – Historico* (Biblioteca del Escurial); en CIUDAD DE DIOS. San Lorenzo del Escurial, tomo CXXXVII, 1921, p. 103 — 114.

وانظر أيضا فهرس المخطوطات العربية بمكتبة الإسكريال الذى وضعه هارتويج ديرنبور وراجعه وأكمله ليڤى پروڤنسال (باريس ١٩٢٨) جـ ٣ ص ١٨٨ — ١٨٩ .

وتنقص المخطوط من أوله ورقتان أو ثلاث على الأكثر فيها خطبة الكتاب وشىء من فاتحته ، وابن الأبار يأتى فيها بنماذج من شعر أمراء من بنى حفص ، والغالب أن بعضها للأمير أبى يحيى زكريا الذى كان ولياً للعهد ثم

توفى قبل وفاة أبيه أبى زكريا يحيى بن أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص عمر بن يحيى الهنتاتى فى سنة ٦٤٧ / ١٢٤٩ — ١٢٥٠ وانتقال الأمر إلى ابنه أبى عبد الله محمد الذى لقب بالمنتصر أو المستنصر .

أما النسخة التى ظن بعضهم أنها فى المكتبة الأهلية فى باريس فنسخة حديثة كتبها المستشرق الإسبانى خوسيه أنطونيو كوندِ وعن هذه نقل المستشرق رينو نسخة صارت إلى ملك الجمعية الأسيوية الفرنسية ، ثم انتقلت إلى المكتبة الأهلية فى باريس (انظر جامع نصوص بنى عباد لدوزى ، ج ٢ ص ٤٦ — ٤٧) وقد استعان بها دوزى فى نشر ما نشر من الحلة ، ولكن بعضهم حسبها مخطوطة قديمة من الحلة وتحدث عنها بهذا الوصف .

وأما نسخة مدريد التى ذكرها بعضهم على أنها أصل من أصول الحلة فنسختان لا واحدة ، كتب الأولى منهما فى سنة ١٧٩٥ مستشرق إسبانى يسمى خوسيه أنطونيو پِيثَرْ José Antonio Pellicer وكتب الثانية مستشرق إسبانى آخر يسمى پابلو أودار Pablo Hodar بتوجيه من ميخائيل الغزيرى ، وقد أصبح هذا الرجل بعد ذلك أستاذاً للغة العربية فى جامعة قلمرية Coimbra فى البرتغال ، وتوفى بها سنة ١٧٧٩ (انظر فهرس مخطوطات المكتبة الأهلية بمدريد الذى صنفه جِيِّنْ رُوبْلِسْ Guillén Robles ، مدريد ١٨٩٨ رقمى ١٢ و ١٣ ص ٨ و ٩) .

ولا وجود كذلك لأى نسخة أخرى من الحلة فى أى مكتبة عامة أو خاصة أخرى بحسَب ما وصل إليه علمى .

وهذه المخطوطة الوحيدة جميلة واضحة الخط ، ولولا هذا الخرم الصغير فى أولها وبعض ثغرات قليلة الأهمية فى سياق النص لكانت من أكمل ما وصل إلينا من المخطوطات . وقد وقع الناسخ أثناء النقل فى خطأ جر إليه السهو ، فانتقل فى أثناء ترجمة أبى عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن عبد العزيز بن أمية بن الحكم الربضى إلى ترجمة أبى عبيد بن عبد العزيز

البكرى ، وكأنه كان ينسخ ترجمة الأول ثم مضى لبعض شأنه وعاد ففتح المخطوط فوقع على ترجمة أبى عبيد بن عبدالعزيز البكرى فلم ينتبه للأمر ومضى ينقل ، وبعد أن فرغ منه تنبه إلى أنه أسقط تراجم معظم أهل القرن الخامس ، فعاد واستتمها ! ومن حسن الحظ أنه لم يسقط شيئاً من الأصل . وقد تنبه إلى ذلك دوزى وبينه فى الكلمة التى صدر بها ما نشر من الحلة ، وراجعتُ الأمر مرة أخرى عند التحقيق ، ونبهت على ذلك فى موضعه .

وقد أفدتُ أكبر الفائدة من عمل دوزى وماركوس مولر فى هذا الكتاب ، وقد جرى الناس على أن يذكروا الأول دون الثانى عند الكلام على الحلة ، مع أن مولر فى الحقيقة خدم ما نشر من النص خدمة طيبة وقد انتفعت من قراءته فى كثير من المواضع ، ومن الحق أن أحيي هنا ذلك الجهد العظيم الذى بذله هذان المستشرقان الجليلان ، لا فى تحقيق ما نشرا من الحلة فحسب ، بل لخدماتهما للدراسات العربية بصفة عامة ، ويكفى أن أحدهما — وهو ماركوس مولر — كان يستحب أن يسمى نفسه امرأ القيس بن الطحان ، لأن امرأ القيس فى رأى البعض تعريب لماركوس أو مرقص ومولر معناه الطحان .

* * *

وبعد فهذا نص « الحلة السيراء » كاملا بين يدى القارئ مخدوماً على قدر ما سمحت به الطاقة وأعان الجهد ، ولقد طالما رجا الباحثون أن يجدوه ميسّراً بين أيديهم ، فعسى أن يكون ما أنفقت من جهد محققاً للرجاء .

وقد أعانني فى ضبط الشعر صديقى وأخى الدكتور محمود على مكى وكيل معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، وأنا مدين له بهذا الفضل ، ووقف على طبع الكتاب فى القاهرة صديقى مصطفى عبد المجيد صالح أكرمه الله بما صدق ونصح ، وتعاونّا نحن الثلاثة على تصحيح تجارب الطبع ، ونحسب أننا نقدم هنا نصاً يخلو من خطأ مطبعى يستحق الذكر .

والله ينفعنا بجهدنا ويزيدنا من فضله وتوفيقه . وخير ما نختم به هذا الكلام دعاء صادق بالرحمة والغفران لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن الأبار .

د . حسين مؤنس

أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب بجامعة القاهرة
ومدير معهد الدراسات الإسلامية بمدريد سابقًا
وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة

القاهرة فى شوال ١٤٠٥
يوليو ١٩٨٥